

2 me Année, No. 60.

Lundi-27-8-1934

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم | ٤٢٣٩٠ | ٤٠٥٣٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة

العـــدد ٦٠ « القاهرة في يوم الاثنين ١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٥٣ — ٢٧ اغسطس سنة ١٩٣٤ » السنة الثانية

فهرس العـــدد

صفحة		
١٤٠١	المصري يكتشف بلاده	« ع »
١٤٠٣	الشخصية	الأستاذ أحمد أمين
١٤٠٥	الأنسانية العليا	الأستاذ مصطفى صادق الرافعي
١٤٠٨	بضع كلمات	الأستاذ محمود خيرت
١٤٠٩	صبيح أو صبيحة	الأستاذ محمد عبد الله عنان
١٤١٢	في السعادة	ترجمة الأستاذ بشير الشريقي
١٤١٣	حول كتاب هتلر	....
١٤١٤	عبد الله بن مسعود	محمد طه الحاجري
١٤١٧	القضاء عند قدماء المصريين	حامد أسعد محمد عاشور
١٤٢٠	الرواية المسرحية	أحمد حسن الزيات
١٤٢٣	موعظة الحكيم	الأستاذ خليل هنداوي
١٤٢٤	أحمد باشا تيمور	حسن عبد الوهاب
١٤٢٧	في الملقات أيضاً	الأستاذ عبد المتعال الصعيدي
١٤٢٩	على الشاطىء (قصيدة)	الأستاذ محمود خيرت
١٤٢٩	ليلة الأهرام (قصيدة)	مختار الوكيل
١٤٣٠	في الريف (قصيدة)	محمود غنيم
١٤٣١	البراكين	نعيم على راغب
١٤٣٤	القـابلة (قصة)	الأستاذ محمود خيرت
١٤٣٥	سحر المرأة (قصة)	محمد عبد الحميد
١٤٣٧	سافو (رواية)	الأستاذ محمود خيرت
١٤٣٩	صلاح الدين الأيوبي (كتاب)	عبد الحميد حفني الشوارني
١٤٤٠	١١ يوليو سنة ١٨٨٢ (كتاب)	الدكتور محمود النشوى

من فضائل الأزمة

المصري يكتشف بلاده

من صفات الأزمات الاقتصادية أنها تعلم الناس الاقتصاد، وتحملهم على الاعتدال في كثير من مواطن الاسراف والتطرف، وقد دهمتنا الأزمة الاقتصادية منذ أربعة أعوام، فقضت على كل أسباب الرخاء والسعة، وألقت على ذوى البذخ والترف دروساً قاسية؛ ولكنها علمتنا من فضائل الاقتصاد مالم نكن نعلم، وفتحت عيوننا الى أمور كثيرة كانت دعة الرخاء تحملنا على إغفالها، وبثت إلى الأعصاب المضطرمة كثيراً من عوامل الهدوء، وإلى النفوس الجامحة كثيراً من عوامل الاعتدال

وكان الاصطياف من الأمور التي كشفت لنا الأزمة بعض أسرارها؛ ففي أعوام الرخاء والسعة، كان المصريون في كل صيف يهرعون ألوفاً الى عواصم أوربا ومصايفها، وينفقون مئات الألوف في فنادقها ومنتدياتها وملاهيها، ثم يعودون وقد استنفد التجوال الممتع كل مافي جيوبهم؛ وكان ما ينفقه المصريون كل عام في الاصطياف خارج القطر يبلغ زهاء المليونين، تذهب كلها الى يد الأجانب. فلما حلت الأزمة، وذهبت بالدخل الفياض، قبع

كثير من المترفين السابقين الذين كانت تجذبهم « موائد » دوڤيل وبياريتز ومونت كارلو فى دورهم . وذكر كثيرون أن هنالك مصايف مصرية يمكن انتجاعها ، ولا تكلفهم ركوب البحار وإنفاق المئات والألوف ، وذكر كثيرون أيضاً أن هنالك مصايف شرقية قريبة لا بأس بها .

كان للأزمة فضل هذا الاكتشاف . فبالأزمة وحدها اكتشف المصريون بلادهم ، وعرفوا بعد فوات كثير من الوقت أن إنفاق الملايين خارج القطر على هذا النحو سفه لا يغتفر ، وأنهم يستطيعون بقليل من المال أن ينتجعوا الراحة والعافية فى مصايف بلادهم كالاسكندرية وبور سعيد والسويس ورأس البر ؛ وكان لما بذلته مصلحة السكك الحديدية لتسهيل الاصطياف أحسن الأثر ، فقد شعر الناس أخيراً أن الاصطياف ليس ترفاً ، وليس وقفاً على الأغنياء ، ولكنه ضرورة صحية ، وأنه فى متناول جميع الطبقات .

واتجه كثير من المصريين ، ممن شاءوا الأصطياف خارج القطر ، الى مصايف البلاد الشرقية القريبة التى لا تجشمهم كبير نفقة ، فأموا فلسطين والشام ولبنان ، واستطاعوا أن يتصلوا عن قرب باخوانهم فى تلك البلاد الشقيقة ، وأن يعملوا على توثيق الروابط المشتركة بينها وبين مصر ؛ وكان ذلك من فضائل الأزمة أيضاً .

***

نذكر أنه لما وقعت كارثة النقد فى فرنسا سنة ١٩٢٥ ، وهبط الفرنك الى نحو نصف قيمته ، بادرت الصحف الفرنسية الى نصح الشعب الفرنسى بأن يقلل من شراء العملة الأجنبية جهد الاستطاعة ، وأهابت بالفرنسيين الذين اعتادوا السفر والسياحة أن يبقوا داخل فرنسا حتى لاتبدد ثروات البلاد وقت المحنة النقدية فى بلاد أجنبية ، وأهابت بهم بالأخص أن يحاولوا أن يكتشفوا فرنسا أولاً ، فيجدوا فيها من بدائع الطبيعة وساحر النزه ، وتنوع المناظر فى البر والبحر ، مايخفف من شغفهم بارتياد مواطن السياحة والنزهة الأجنبية . فاستمع الفرنسيون الى هذا النداء القومى ، وكانت فرصة اكتشفوا فيها بلادهم على نحو ماقالت صحفهم يومئذ ، واقتصدت فرنسا يومئذ مئات الملايين ، وازداد الفرنسى شغفاً بالتجوال فى بلاده ، وتفضيلها على غيرها فى قضاء فترات العطلة والراحة .

ولما وقعت الأزمة الاقتصادية الحالية ، واضطربت أحوال النقد فى كثير من البلاد الأوربية ، وضعت ألمانيا والنمسا والمجر ويوجوسلافيا وغيرها قيوداً شديدة على شراء العملة الأجنبية لتحول دون تسرب أموالها الى الخارج ، ولتمنع مواطنيها جهد الأستطاعة من السفر خارج بلادهم وإنفاق أموالهم فى بلاد أخرى . ووضعت دول أخرى قيوداً شديدة على شراء المنتوجات والحاصلات الأجنبية ، واشترطت أن يكون الدفع بعملتها أو من منتوجاتها ، وكان للقيود الأولى أثرها فى ركود موسم السياحة المصرى ، وكان للثانية أثرها فى كساد سوق صادراتنا .

ولكننا فى مصر نغفل هذه الاعتبارات دائماً ، ومال المصرى مباح أبداً ، وعرضة للتبديد خارج القطر حتى فى أحرج الأزمات ؛ ولم توفق الحكومة المصرية حتى اليوم الى أن تضع لها أية سياسة أو تقاليد ثابتة فى مثل هذه الشئون ؛ فهى لم تفكر مطلقاً فى اتخاذ أية إجراءات للمحافظة على أموال المصريين الذين لا يحملهم أى وازع على حفظها ، وللحد من حريات ذلك النفر الذى مازال فى كل صيف يحمل الأموال التى يعتصرها من عرق الفلاح الى «موائد» العواصم والمصايف الأوربية ، والى مراقصها وفتياتها .

***

يقولون إن لمصر موسم سياحة ، وإنها تغنم من ذلك الموسم مالاً لابأس به ؛ فلماذا لاينفق المصريون مثل هذا المال فى مواطن السياحة الأوربية . والحقيقة أن مصر تظلم بهذا القول أيما ظلم ، ففى مصر موسم سياحة حقاً ، ولكن معظم الغنم فى هذا الموسم لا يعود إلى مصر والمصريين ، وإنما يعود الى الأجانب : إلى شركات السياحة الأجنبية ، وإلى شركة الفنادق الاجنبية ؛ وما بضع عشرات الألوف التى تعود على خزينة الحكومة من أجور السكك الحديدية وتذاكر الآثار ، ثم على بعض المصريين المتصلين بهذا الموسم ، إلا فضلات مما يجنيه الأجانب باسمنا .

لقد بدأ المصرى يكتشف بلاده ، وعلمته الأزمة شيئاً من الاقتصاد والاعتدال ؛ فهل سيعتبر بهذا الدرس دائماً ، ويذكره أيضاً أيام الرخاء ، فيضن قدر الاستطاعة بماله أن ينفق فى غير بلاده ؟ أم هو درس الساعة فقط ، يزول أثره بزوال الظرف الذى ألقاه ؟

وعلى أى حال فانه يبقى للأزمة فضل التذكرة وفضل العبرة .

« ع »

الشخصية

للأستاذ احمد أمين

أعجب ما فى الانسان شخصيته ، وقد تنوعت الشخصيات بعدد ما على ظهر الأرض من إنسان ؛ فترى الشبه الكبير بين الحجر والحجر ، ويصعب عليك أن ترى بينهما فرقا ، وترى المطبعة تخرج آلافاً من الكتب تتشابه وتتماثل ، ولا تميز بين أحدها والآخر ؛ وترى الشبه الكبير بين الوردة والوردة فى رائحتها ولونها وكل شيء فيها ؛ وترى الحيوانات من فصيلة واحدة تتشابه وتتقارب حتى ليلتبس عليك بعضها ببعض — أما الانسان والانسان فلا ، حتى ليكاد يكون كل إنسان فصيلة وحده — فان كان علماء « الأنثولوجيا » استطاعوا أن يقسموا الانسان الى أنواع ، وأن يضعوا لكل نوع خصائصه ومميزاته ، فذلك عمل تقريبي محض ؛ أما إن أرادوا الدقة التامة فلا بد لهم أن يضعوا كل فرد فى قائمة وحده ، له مميزاته الخاصة فى جسمه وعقله وروحه وخلقه ؛ فاذا أردنا أن نحصى الشخصيات فى هذا العالم فعلينا أن نحصى عدد الناس فنضع مايساويه من عدد الشخصيات — وكانت اللغة عاجزة كل العجز عن أن تضع لكل شخصية اسماً خاصا ، فاكتفت فى الجسم بأن تقول : طويل أو قصير ، وسمين أو نحيف ، وأبيض أو أسمر ؛ مع أن كل كلمة من هذه تحتها أنواع لا عداد لها ، فهناك آلاف من أنواع الطول ، وآلاف من أنواع القصر ، وآلاف من الألوان ؛ ولكنها عجزت فقاربت ، ولو حاولت أن تضع اسماً خاصا لكل نوع من أنواع العيون وحدها ، على اختلافها فى الألوان واختلافها فى النظرات ، واختلافها فى السحر ، واختلافها فى السعة والضيق لوضعت فى ذلك معجما خاصا ، وهيهات أن يغنيها

وعجز علماء الجمال فاكتفوا بقولهم جميل وقبيح ، مع أن هناك آلافاً من درجات الجمال ، وآلافاً من درجات القبح ، بل إنك لا تستطيع أن تنزل إنسانين فى منزلة واحدة من الجمال والقبح ، فلما أعياهم الأمر قنعوا بقبيح وجميل ، واكتفوا بالاجمال عن التفصيل

وعجز علماء الأخلاق فوقفوا فى ذلك مثل موقف إخوانهم علماء الجمال ، فقسموا الأعمال الى خير وشر ، وقسموا الصفات الى فضيلة ورذيلة ، وسموا الانسان خيّراً أو شريرا ، وهيهات أن يكون ذلك مقنعا ، فالخير والشر يتنوع بتنوع الأفراد ، ولو كان للأخلاق ميزان دقيق لاحتاج الى سنج بعدد ما فى العالم من إنسان

الحق أن علماء كل علم عجزوا عجزاً تاماً عن أن يجاروا الشخصيات فى كل مناحيها ، وأن يسيروا وراء تحديدها تفصيلا ، ووجدوا العمر لا يتسع لهذا ولا لبعضه ، فعنوا بوجوه الشبه أكثر مما عنوا بوجوه الخلاف ، وعنوا بالموافقات أكثر مما عنوا بالفروق ، وفضلوا أن يضعوا مسميات شاملة وإن شملها الخطأ ، وأن يضعوا قواعد عامة وإن عمها الغموض والأبهام ، وقالوا ليس فى الامكان أبدع مما كان

* * *

هذه الشخصية لكل فرد هى التى ميزته عن غيره من الأفراد ، وجعلتنى أنا أنا ، وأنت أنت ، وهو هو ؛ ولولا هذه الشخصية لكان أنا وأنت وهو شيئاً واحداً — هذه الشخصية هى مجموع صفاتك الجسمية والعقلية والخلقية والروحية ، تتكون من شكلك ونظراتك ونبراتك وطريقة حديثك ، ودرجة صوتك من الحسن أو القبح ؛ وإيمائك وإشارتك كما تتكون من عقليتك وكيفية قبولك للأشياء ، وحكمك عليها ومقدار ثقافتك ـ كما تتكون من تصرفاتك وموقفك نحو المال ودرجة حبك له ؛ وعلى الجملة كل علاقاتك بالحياة ، وكل علاقة الحياة بك ـ وإذ كان الناس مختلفين فى هذا كله اختلافاً يسيراً أو كثيراً كانت الشخصيات كذلك مختلفة ، وبين بعضها وبعض وجوه شبه فى بعض الأشياء ، ووجوه خلاف فى بعضها ، وكانت بعض الشخصيات تتجاذب وتتحاب ، وبعضها تتباغض وتتنافر — وفى الواقع إن معنى أحبك أو أبغضك ، وأعرفك أو أنكرك ، أن شخصيتى تحب شخصيتك أو تكرهها ، وتعرفها أو تنكرها ، وصدّق الحديث « الأرواح جنود مجندة ماتعارف منها ائتلف ، وماتناكر منها اختلف » وليس معنى حب الشخصية لشخصية أخرى أن الشخصيتين من جنس واحد ، وأن ميولها متقاربة ، بل إن ذلك يرجع الى قانون أكثر تعقيداً مما نظن ، فقد يتحاب الشخصان لأن ميلها العلمى فى اتجاه واحد ، أو ميلها الى كيف من الكيوف متحد ، وقد يتحاب الشخصان لأنهما مختلفان ويكمل نقص أحدهما الآخر ، كما يحب أحياناً كثير الكلام قليل الكلام ، وكما يحب الساكن الهادىء المتحفظ

السريع النشيط المتحرك ، وكما تتعاشق الكهربائية السالبة والموجبة — على كل حال ليس قانون تجاذب الشخصيات وتنافرها قانوناً بسيطاً سهلاً يمكن الفصل فيه بكلمة

***

هذه الشخصيات الأنسانية تختلف قوة وضعفاً اختلافاً أكثر مما بين الآلات الميكانيكية والمصابيح الكهربائية ، فهذه شخصية عاجزة ضعيفة ذليلة ، لا يكاد يتبينها الانسان إلا بعسر ، ولا يكاد يراها إلا بمنظار ، ولا يكاد يحسها إلا بمجهود ، هي « كاللمبة » قوتها شمعة واحدة ، بل هي فوق ذلك مغبشة لتضعف قوتها ، هي من جنس مايستعمل فى حجر النوم ، نور كلا نور ووجود كعدم ، لاتتعب نظر النائم لأنه لايشعر لها بوجود ، ولا تستهلك مقداراً يذكر من التيار لأنها كامنة الحياة ، مسكينة فى فعلها وانفعالها ، ضعيفة فى تأثيرها وتأثرها ، وهذه شخصية أخرى قوتها ألف شمعة أو ألفان أو ماشئت من قوة ، تضيء فتملأ البيت نوراً ، بل هى أكبر من أن تضاء فى بيت ، إنما تضاء فى شارع كبير أو ساحة عامة ، إذا وضعت فى بيت أقلقت راحة أهله بقوتها ، وأعشت الناظر بضوئها ، وعد وضعها غير ملائم لجوها ، وكان مثل ذلك مثل من وضع « فناراً » فى بيت ، أو أشعل أكبر وابور جاز ليصنع عليه فنجان قهوة — وبين اللمبة الأولى الضعيفة الخافتة ، والثانية القوية الباهرة درجات لاتحصى ، فكذلك الشخصيات ، بل أكثر من ذلك — ولكن هناك فروقاً بين الشخصيات واللمبات ، أهمها أن اللمبة الكهربائية لايمكنك أن تنقلها من قوة الى قوة ، فاللمبة التى قوتها شمعة واحدة هى كذلك أبداً ، والتى قوتها مائة أو مائتان هى كذلك أبداً ، وكل ماتستطيع أن تفعله أن تنظف اللمبة وتجلوها حتى لايضعف غبش من قوتها ، ولايقلل غبار من ضوئها — أما الشخصية الانسانية فقابلة للتحول ، بل هى قابلة للطفرة صعوداً وهبوطاً ، علواً وانحطاطاً — فبينا هى خاملة ضعيفة إذ اتصل بها تيار قوى أشعلها وقواها حتى كأنها خلقت خلقاً آخر ، وكأنه لااتصال بين يومها وأمسها ، هى اليوم مخلوق قوى فعال يلقى أشعته الى أبعد مدى ، وكانت بالأمس لايؤبه بها ، ولايحس بضوئها — كذلك ترى شخصيات أخرى يخبو ضوؤها ، فاذا هى مظلمة بعد نور ، وضعيفة بعد قوة ، ليس لها من حاضرها إلا ماضيها — وكذلك شاء الله ، يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويخلق الانسان فى أحسن تقويم ، ثم يرده أسفل سافلين — وتاريخ الانسان مملوء بالأمثال ، فكم من نابغ بعد خمول ، وخامل بعد نبوغ ، وميت فى الحياة الأدبية والاجتماعية حى ، وحى مات ، وهكذا شخصيات الناس فى مد وجزر دائماً .

وهذا التغير المستمر فى الشخصيات هو الذى أبقى على أمل المصلحين فى إصلاح الناس ، وباعد بينهم وبين اليأس .

***

وكل شيء يواجه الانسان فى حياته يؤثر فى شخصيته أثراً صالحاً أو سيئاً فالغنى بعد الفقر ، والفقر بعد الغنى ، واليأس بعد الأمل ، والأمل بعد اليأس ، ومايعتريه من شدائد وكوارث ، وما يبذله فى صراع الحوادث ، وما يلاقيه من رخاء ونعيم ، وما يبعثه ذلك من هدوء واطمئنان — كل هذا وأمثاله له أثر فى تكوين الشخصية يختلف ضعفاً وقوة ؛ وأهم غرض للتربية الصحيحة فى نظرى أن تجعل ممن تربيهم شخصيات هى أقوى ما يمكن أن يكون الأشخاص من حيث استعدادهم وأهليتهم ، فأنجح مرب هو الذى يستطيع أن يصل بطلبته الى أقصى ما فى استعدادهم من رقى ، ويبلغ بشخصياتهم الى آخر حدودها الممكنة ــ ولكن بجانب هذا التأثير العادى اليومى تحدث حوادث بارزة فى تاريخ الانسان وخاصة العظماء يكون لها الأثر البالغ والتغير الخطير — وهذه الحوادث يصعب ضبطها وتعليلها وحصرها — فقد تنقلب شخصيات الأفراد فجأة على أثر عقيدة دينية تملأ نفوسهم حماسة وقوة وعظمة كما رأينا فى فعل الاسلام فى رجاله أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ، فلولا الاسلام ما كانت لهم هذه الشخصيات البارزة ، ولكانت عظمتهم محدودة محصورة ، ولو سبقوا زمنهم بسنين لماتوا كأمثالهم من عظماء الجاهلية ، وقد يكون بروز الشخصية وظهور النبوغ فى الانسان على أثر مقابلته عظيماً ، فيحس بعدها كأن عود ثقاب أشعل فى نفسه فألهبها ، وأضاء مابين جوانبه وحفزه للعمل ، وهون عليه الأخطار ، بل قد تكون العظمة نتيجة لشيء أتفه من ذلك ، فقد يقرأ جملة فى كتاب ، أو يسمع عبارة من خطيب ، فكأنها كانت مفتاح عظمته ، وكاشف حيرته ، بل قد تكون العظمة لم تأت من شيء

[البقية على صفحة ١٤٣٨]

الانسانية العليا

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، ليس بالجافى ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت لا يذم منها شيئاً ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فاذا تُعُدِّيَ الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ، وكان خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره الى السماء ، من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه ، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه ، ولا يطوى عن أحد من الناس بِشْرَه ، قد وسع الناس بسطُهُ وخُلقُه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواءً ، يحسِّن الحسنَ ويقوِّيه ، ويقبِّح القبيحَ ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبِّت بصره فى وجه أحد ، له نور يعلوه ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، لا يؤيس راجيه ، ولا يخيب فيه ، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول ، أجود الناس بالخير (١) .

***

صلى الله وسلم على صاحب هذه الصفات التى لا يجد الكمال الانسانى مذهباً عنها ، ولا عن شيء منها ، ولا يجد النقص البشرى مساغا إليها ، ولا إلى شيء منها ، ففيها المعنى التام للانسانية ، كما أن فيها المعنى التام للحق ، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للايمان .

هى صفات إنسانها العظيم ، وقد اجتمعت له لتأخذ عنه الحياةُ إنسانيتها العالية ، فهى بذلك من براهين نبوته ورسالته .

ولو جمعت كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ، ونظمتها بعضها إلى بعض ، واعتبرتها بأسرارها العلمية — لرأيت منها كونا معنويا دقيقاً قائماً بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا معجم نفسى حيّ ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديداً ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله .

ولن ترى فى الانسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض ، وإنى لأكاد كلما تأملتها أحسب هذا السمو قضاء وقدراً بانسان على الانسانية كلها . وهى دليل على أنه الانسان الذى خُلق للدنيا لا لنفسه ، فهو لا ينمو بما يكون له على الناس من الحق ، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات ، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها ، فما تكون فى الوجود إلا لتقرر وجودها هى ، ولا تنتهى حين تنتهى بذاتها إلا لتبدأ معانيها فى غيرها ، فهو صلى الله عليه وسلم إنسان غُرِسَ فى التاريخ غرساً ليكون حداً لزمن وأولاً لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه ، وهو أبداً قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته . وقد أصبح فى الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس ، فلن يتغير أو يُمحَى إلا إذا تغير أو مُحِيَ المشرق والمغرب .

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشمائل من أمثالها — لا نقرؤها أوصافاً ولا حلية ، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبدع تصنيف وأدقه ، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدّى الفكر البشرى لأحسنَ منه ولا أصح ولا أكمل ، فقد اجتمعت تلك الصفات فى إنسانها اجتماع الأجزاء فى المسألة الرياضية لا ينبغى أن تزيد أو تنقص ، إذ كان فى مجموعها ما وُجِدَ له مجموعها .

ويكاد الارتباط بين أجزاء هذه المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة ، فان كل جزء منها موضوع وضعاً لا يتم الكلُّ إلا به ، حتى لا موضع فيها لقلة أو كثرة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وأنت إذا دققت فى هذا الحديث أدركت من معناته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة تجرى على قانونها الذى وضعه الله لها وأحكمها به .

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم — أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخلقة القلب

(١) جمعنا هذه الأوصاف من روايات مختلفة ، وجعلناها كالحديث الواحد .

الانسانى ، نظامه حياته وحياته نظامه ، وكأنما اعترته حالة نفسية كانت تعترى القلب فى استشعار الخطر فتخرجه من طبيعته إلى أقوى منها ، فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد — من القوة والصبر يجعل الحياة فيها على أضعافها كأنها حياة كانت مخبوءة وظهرت بغتة ؛ وفى هذه الحالة تتجه غرائز النفس كلها إلى جهة واحدة كأنها مقدّرة بميزان ، مضبوطة بقياس ؛ فترجع على تناقضها واختلافها متعاونةً يؤازر بعضها بعضاً ، وكان قانونها الطبيعى أن تتجاذب وتتساقط وتنسر الواحدة منها عمل الأخرى ، فيجىء بها الشئ وضده معاً : كالصدق والكذب ، والطمع والقناعة ، والشهوات الثائرة والخمود الساكن ، إلى آخر ما تعد من هذه الغرائز ؛ ولكنها فى استشعار الخطر تكون كالأشباه لا كالأضداد ، فيشد بعضها بعضاً ، ويتمم النقيضُ منها نقيضَه ، وتجرى كلها فى قانون واحد : هو الدفاع بأجزائها عن مجموعها ؛ فترى النازع منها وإنه لمستقر فى أشد من القيد ، وكأن فيه غير طبيعته .

وهل ينبئك مجموع صفاته صلى الله عليه وسلم إلا أنه يعيش معيشة القلب إذا اختلف ما حوله وفجأته بغتاتُ الوجود فتجاوز أن يكون منبعاً للحياة إلى أن يكون حافظاً للحياة فى منبعها . وتلك الحالة — كما مرّ بك — تجعل وجود الانسان هو وجود إرادته وعقله ، لا وجودَ شهواته وغرائزه ؛ وبذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، فهو مدةَ حياته فى وجود إرادته لا غيرها ، حتى ليس عليه سبيل لغميزة أو لائمة ، كأنه خُلقٌ تشدّه نية مستيقظة قد نبهها ما ينبّه النفس من الغَرَرِ والخطر . ولعل هذا الشعور فى نفسه صلى الله عليه وسلم هو التفسير لقوله : « نيةُ المؤمنِ خيرٌ من عمله » إلى أحاديث كثيرة مما يجرى فى معنى هذه الكلمة الجامعة ؛ يريد بها : أن نية المؤمن لا تنطوى إلا على الخير الكامل ، فهو ما دامت نيته على صلاحها ، وسرُّه على إخلاصه — لا يعدُّ اليسير من الشر يسيراً ، ولا يرى الكثير من الخير كثيراً ؛ فالأصل القائم فى تلك النية المؤمنة ألّا يبدأ الشرُّ كى لا يوجد ، وألا ينتهى الخيرُ كى لا يفنى ؛ فالمؤمن من ذلك على الخير والكمال أبداً ، فى حين أن عمله بطبيعته الانسانية يتناول الخير والشر جميعاً ، ثم لا يكون إلا عملاً إنسانياً على نقص واضطراب والتواء

وقد لا يستطيع المؤمن أن يأتى الخير فى بعض أحواله ، ولكنه يستطيع دائماً أن ينويه ويرغب فيه ويعزم عليه ليحقق ضميرَه الطيب فى كل ما يهمّ به ، ويحصر أفكاره فى قانون نيته المؤمنة . وهذا هو الأساس فى علم الأخلاق ، لا أساسَ من دونه

والنية من بعدُ هى حارس العمل ، فكل إنسان يستطيع أن يذعن وأن يأبى ، ومن ثم تكون هذه النية رداً ومدافعة من ناحية ، واستجابة ومُطاوَعة من الناحية الأخرى ؛ فهى على الحقيقة متى صلحت كانت استقلالاً تاماً للارادة ، وكانت مع ذلك ضبطاً لهذه الارادة على حال واحدة هى التى ينتظم بها قانون المبدأ السامى .

ثم إنه لا ضابط لصحة العمل واستقامته إلا النية الصحيحة المستقيمة ؛ فالتزوير والتلبيس كلاهما سهل ميسور فى الأعمال ، ولكنهما مستحيلان فى النية إذا خلصت .

وهى كذلك ضابط للفضائل توجّه القلوب على اختلافها وتفاوتها اتجاهاً واحداً لا يختلف ، فيكون طريق ما بين الانسان والانسان ، من ناحية الطريق ما بين الانسانُ وبين الله .

وأشواق الروح بطبيعتها لا تنتهى ، فيعارضها الجسم بجعل حاجاته غير منتهية ، يحاول أن يطمس بهذه على تلك ، وأن يغلّب الحيوانية على الروحانية ، فاذا كانت النية مستيقظة كفّته وأماتت أكثر نزعاته ، ووضعت لكل حاجة حداً ونهاية ؛ وبذلك ترجع النية الى أن تكون قوة فى النفس يخرج بها الانسان عن كثير مما يَحُدُّه من جسمه ، ليخرج بذلك عن كثير مما يحده من معانى الأرض .

وهى بعد هذا كله تحمل الانسان أن ينظر الى واجبه كأنه رقيب حىّ فى قلبه ، لا يرائيه ولا يجامله ، ولا يُخدع من تأويل ، ولا يُغَرُّ بفلسفة ولا تزيين ، ولا يُسكِته ما تسوّل النفس ، ولا يزال دائماً يقول للانسان فى قلبه : إن الخطأ أكبرَ الخطأ أن تنظّم الحياة من حولك وتترك الفوضى فى قلبك .

وجملة القول فى معانى النية أنها قوة تجعل باطن الجسم متساوقاً مع ظاهره ، فتتعاون الغرائز المختلفة فى النفس تعاوناً سهلاً طبيعياً مطّرداً ، كما تتعاون أعضاء الجسم على اختلافها فى اطراد وسهولة وطبيعة .

***

وكل صفات النبي صلى الله عليه وسلم — مما ذكرناه ومالم نذكره — متى اعتبرت بذلك الأصل الذي بيّناه انتظمها جميعاً ، فجاء بعضها تماماً على بعض في نسق رياضي عجيب ، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة ، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة ، لا يُعَدُّ جزءٌ منه جزءاً ، بل كله أجزاؤه ، وأجزاؤه كله ؛ كالوضع الهندسي ؛ إما أن يكون بكله ، وإما ألا تكون فيه الهندسة كلها .

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الانسان صنعة جديدة تخرجه موجوداً من ذات نفسه ، وتكسر القالب الأرضي الذي صُبَّ فيه وتفرغه في مثل قالب الكون ، فاذا هو غير هذا الانسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه ، فلا تخضعه المادة ، ولا يؤتَى من سوء نظره لنفسه ، ولا تغرّه الدنيا ، ولا يمسكه الزمان ؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبَد بأهوائه لا الحرّ فيها ، والخاضع بنفسه لا المستقل بها ، والمقبور في إنسانيته لا الحيّ فوق إنسانيته . ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه ، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله ؛ ويتصل بكل شيء اتصـالاً مبتوراً ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه .

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الانسان الاجتماعي حيوان تقـابله الحكمة في الحيوان الأليف بانسان ؛ وحكمهما واحد ومنطقهما لا يختلف . فلو أنك سألت حيوانَ الأعصابِ عن صاحبه الانسان لقال لك : هو غَلّتي ومزرعتي . ولو سألت كلباً عن حبّه صاحبَه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يحبه حبَّ اللقمة والعظمة . . .

ومتى كان الانسان في حكم حواسه لم تَعُد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة ، وانقلبت كما هي في وهمه بمعان متفاوتة مضطربة ، فلا يشعر المرء بائتلاف الوجود وتعاونه ، ولكن باختلافه وتناقضه ، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم ، ويدخل في كل حب بغضٌ ، وفي كل رغبة طمعٌ ، وفي كل خير شرٌّ ، وفي كل صريح خبيء ، وهلم جراً ؛ إذ لا بد من هذا كله متى غلب الفاني على الباقي ، ولا بد من كل هـذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة التي أساسها التغيّر والتقلّب ، حتى لكأن النفس إنمـا تعيش بها في ظاهر من الحياة ، لا في الحياة نفسها .

وهذا الخداع جاعلٌ كلَّ شيء من أشياء النفس لا يبدأ إلا لينتهي ، ثم لا ينتهي إلا ليبدأ ؛ فما تزال هذه النفس طامعة فيما لا تناله ، ولا تزال من ذلك مصدرٌ لآلامها الحسية ؛ ثم إذا هي نالت منالها سئمت ، فلا تزال من ذلك مصـدر آخر لآلامها المعنوية . ولن يجيء الصحيح من غير الصحيح ، فالكون كله ليس إلا كذباً في النفس الكاذبة بحواسّها .

ولذا كان أخص أوصافه صلى الله عليه وسلم راجعاً الى خروجه من سلطان نفسه ، فلا يغضب لها ، ولا يطلقها من الدنيا فيما تذمه أو تمدحه ، ولا يحب فيها ، ولا يبغض من أجلها ، ولا يهاونها ، ولا يستلين لها في مأكل ولا ملبس ، ولا يأخذها إلا من ناحية الايمان بالله والايمان بالانسانية ؛ فأفراحها أحزانها ، وآمالها أشواقها ، وأملا كها أعمالها ، وحسابها في طبيعتها ، وحوادثها من العقل لا من الحواس ، وعظمتها إثبات ذاتهـا في غيرها ، لا إثبات غيرها في ذاتها ؛ وغايتها في الباقي لا الزائل ، وفي الخالد لا الفاني . ومادام الحاضر متحركا فهو طارىء عابر أو شكُّ أمورِ الدنيا زوالا ، والعمل له على مقـداره في قلة لبثه وهوان أمره ، والاهتمامُ أبداً بما وراءه لا به .

فأول النفس النية العاملة لآخرتها ، وآخر النفس ما تؤدى اليه أعمال هذه النية ؛ فليس في إنسان الدنيا إلا إنسان العالم الآخر ؛ وبهذا يُقـدَّر صمته وكلامُه ، وحركته وسكونه ، وما يأتي وما يدع ، وما يحب وما يكره ؛ إذ كل شيء منه على ذلك الاعتبار إنما هو صورة الحقيقة العاملة فيه .

وجمـاع الأمر ألا يكون مستقبل الانسان علامة استهزاء بجانب ماضيه ، ولا علامة استفهام ، ولا علامة إنكار .

***

وتدل صفات النبي صلى الله عليه وسلم باجتماعها وتساوُقها على حقيقـة عظمى لم يتنبه إليها أحد ؛ وهي أن جميع خصائصه النفسية مرهفة متيقظة ، وهـذا مما يندر وقوعه وإمكانه ؛ فان الرجل من الناس ليكون حياً بالحياة ، ولـكن جوانب كثيرة من

نفسه قد طاح بها الموت ، أوهى مريضة ، وذلك أول الموت ؛ أو غافلة ، وذلك شبه الموت . أما الحيّ العظيم فهو الذى يحيا بأكثر خصائص نفسه ، وأما الحى الأعظم فهو الذى يحيا بجميع خصائصها، تملؤه الحياة فيملأ الحياة ، ويتمدد السرّ فيه ليريه حقائق الأشياء ، ويهديه ويدلّه ، فيكون بنفسه رؤية للناس وهداية ودلالة ؛ ومثل هذا يعظم ثم يعظم حتى ليرى الفرق بينه وبين غيره كالفرق بين نور لبس اللحم والدم ، وبين تراب لبس الدم واللحم .

وذلك لا يكاد يتفق إلا فى مراتب أعلاها الامتياز فى النبوة ، ثم النبوة ؛ ثم تنزل الى الامتياز فى الحكمة ، ثم تهبط الى عبقرية الشعر . فأكبر الشعراء قاطبة كالنبى فى معناه إلا أنه نبى صغير ، وإلا أنه فى حدود قلبه .

وهذه القوى الثلاث هى التى أبدعتها الحكمة الالهية لتحويل الحياة والسموّ بها ؛ فالشاعر يستوحى الجمال إذا تألّه الجمال فى قلبه ، والحكيم يستوحى الحقيقة إذا تألهت فى نفسه ، والنبى يستوحى الألوهية نفسها .

***

(كان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان) ولكنها أحزان النبوّة تكسو الحياة فرح النفس الكبيرة ، وهو فرح كله حزن وتأمل ، وفكرة وخشوع ، وطهر وفضيلة . وما فرحُ أعظم الشعراء بطرب الوجود وجمال الموجودات إلا شئ قليل من حزن النبى .

(وكان دائم الفكرة ليست له راحة) إذ هو مكلَّف أن يصنع الانسان الجديد وينقح الآدمية فيه . وفكرة النبى هى معيشته بنفسه مع الحقائق العليا ، إذ لا يرى أكثرها تعيش فى الناس . وهى الفردية واستقلالها وسموّها لأنها إطاقة النفس الكبيرة لوحدتها ، بخلاف الأنفس الضعيفة التى لا تطيقها ، فدأبها أبداً أن تبحث عما تستعبد له ، أو تنسى ذاتها فيه ، أو تستريح اليه من ذاتها . ومتى كانت النفس فارغة كان تفكيرها مضاعفة لفراغها ، فهى تفر منه إلى مايلهيها عنه . ولكن العظيم يعيش فى امتلاء نفسه ، وعالمه الداخلى تسميه اللغة أحياناً : الفكرة ، وتسميه أحياناً : الصمت .

(وكان صلى الله عليه وسلم طويل السكت لا يتكلم فى غير حاجة) ومن الصمت أنواع ، فنوع يكون طريقة من طرق الفهم بين المرء وبين أسرار مايحيط به ؛ ونوع يغشى الانسان العظيم ليكون علامة على رهبة السر الذى فى نفسه العظيمة ، ونوع ثالث يكون فى صاحبه طريقةً من طرق الحكم على صمت الناس وكلامهم ، ونوع رابع هو كالفصل بين أعمال الجسد وبين الروح فى ساعة أعمالها ؛ ونوع خامس يكون صمتاً على دوىٍّ تحته يشبه نوماً ساكناً على أحلام جميلة تتحرك .

***

على هذا النمط يجب أن تُفسر كل أوصافه صلى الله عليه وسلم ؛ فهى بمجموعها طابع إلهى على حياته الشريفة يثبت للدنيا بكل براهين العلم والفلسفة أنه الانسان الأفضل ، وأنه الأقدر ، وأنه الأقوى .

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

بضع كلمات

خير زمام لمطية الشجاعة الحلم

لا تستقلّ أمة نفوس أفرادها غير مستقلة

لايخرج أبو الهول من صمته حتى تتكلم

الحياة كأس تحلو وتمر ، ثم تتحطم

لاتنهر السائل فقد ينهرك غداً

العفاف كالمعدة يشبع ويجوع ، فاذا لم يجد ما اعتاده من طعام الزوجية الطيب انصرف الى غيره من خبيث الطعام

المرأة شيطان جميل

السكير يملأ فى آخر أيامه قواريره عقاقير

ما رأيت أستاذاً يعلمنى الحلم خيراً من زوجتى وأولادى

شباب التاريخ يتجلى فى آثاره القديمة

الطبيعة الجميلة ليست ملكى ولكنها ملك عينيّ ، فلم لا أتمتع بها؟

الأولاد مصابيح البيت

المرأة كالطفل ، نفر منه فيتبعنا ، ونتبعه فيفر

أعمى البصيرة أعمى مرتين

المخدرات كالمرابى ، ولكنها تتقاضى ربحها من صحتك

محمود خيرت

شخصية نسوية أندلسية

صبح أو صبيحة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

تولى محمد بن أبي عامر مقاليد الحكم مع الحاجب جعفر بمعونة صبح وتدبيرها كما بينا، وبدأ الصراع بين الرجلين على الاستئثار بالسلطة. وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب، سواء بمواهبه وقوة نفسه أم بمؤازرة صبح له. ولم تكن هذه المؤازرة ترجع فقط الى ذلك الحب القديم الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي، ولكنها كانت ترجع أيضاً الى ثقة صبح في مقدرته وبراعته، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى، وأن يوطد السلام والأمن في المملكة. فكان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق، وكانت صبح تفوض اليه كل سلطة وكل أمر، فكان يدير الشئون كلها بمهارة تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء.

وكان الأمير الفتى، هشام المؤيد بالله، ميالاً بطبعه وسنه الى اللهو والدعة، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة التي تهيئ الأمراء للاضطلاع بمهام الملك، فكان يلزم القصر والحدائق، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب. وكان ابن أبي عامر يشجع هذه الميول السيئة في نفس الأمير ويراها ملائمة لمقاصده؛ ومذ ولي هشام، حجر عليه ابن أبي عامر؛ ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين في قصره لا يعرف شيئاً من العالم الخارجي إلا ما يسمح له من ضروب اللهو واللعب. وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي: «حجر المنصور بن أبي عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد مذ ولي الحجابة. وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنساً فلا يعرف، واذا سافر وكل من يفعل به ذلك[1]». ويروي كوندي أن سيداً فارسياً يدعى سابور كان من أمناء القصر أيام الحكم، جاء من ماردة الى قرطبة يوم البيعة لهشام ليؤدي يمين الطاعة، وحاول رؤية الأمير فلم يستطع[1]. وفي الفرص النادرة التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج كان ابن أبي عامر يتخذ أشد التحوطات، فيحيط موكب الأمير حين يخترق شوارع قرطبة بصفوف كثيفة من الجند تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه. وكان الحجر على هشام عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتزم ابن أبي عامر أن يحدثه في نظم الدولة لتمكين سلطانه وطغيانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده.

ولا يتسع المقام للأفاضة في شرح الوسائل والاجراءات المتعاقبة التي تذرع بها ابن أبي عامر لتحقيق مشروعه؛ ولكنا نقول فقط إنه سار الى غايته بسرعة مدهشة، ولجأ في تحقيقها الى أشد الوسائل؛ واستطاع بعزمه وصرامته وبراعته أن يسحق كل عقبة، وأن يروع كل منافس ومناوئ. وفي ذلك يقول لنا ابن خلدون: «ثم تجرد (أي ابن أبي عامر) لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم»[2]. وكان أشد ما يخشى منافسة الحاجب جعفر، ودسائس الخصيان الصقالبة بالقصر؛ فبدأ بالتخلص من الصقالبة وحمل جعفر على نكبتهم وتشريدهم، فقتل منهم عدد كبير واعتقل الباقون أو شردوا؛ ولبث بعد ذلك حيناً يتربص بجعفر، ويحرض صبحاً عليه، وبنوه كلما سنحت الفرص بقصوره وسوء تدبيره، ثم اعتقله أخيراً وأودعه السجن حتى مات؛ وجدّ بعد ذلك في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم من زعماء القبائل، وسحق كل من يصلح للولاية والرآسة. وفي ذلك يقول ناقم منه:

أبني أمية أين أقمار الدجى ... منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

وعمد ابن أبي عامر الى الجيش فنظمه من جديد ليؤكد عونه وإخلاصه، وأبعد عنه كل العناصر المريبة، وملأه بصفوف جديدة من البربر والمرتزقة؛ وفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة أنشأ مدينة جديدة في ضاحية قرطبة على ضفة الوادي الكبير وسماها بالزاهرة، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة والدواوين؛ وأنشأ له حرساً خاصاً من البربر والصقالبة؛ واتخذ سمة الملك، وتسمى

(١) المقري — ج ١ ص ٢٧٦

(١) كوندي — ج ١ ص ٤٩٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونقش اسمه فى السكة ؛ وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى الاسم [1]

***

ماذا كان موقف صبح إزاء ذلك الانقلاب ؟ لقد كانت أكبر عون لابن أبي عامر على إحداثه ؛ وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذى ملك عليها كل مشاعرها وعقلها يدفعها دائماً الى مؤازرته والأذعان لرأيه ووحيه ؛ وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به ، ويعميها دائماً عن إدراك الغاية الخطرة التى يسعى الى تحقيقها ؛ هذا اذا لم نفترض أن تلك الفرنجية المضطرمة الجوانح كانت تذهب فى حبها الى حد الايثار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علائقها بابن أبي عامر ، أو المنصور كما نسميه فيما بعد ، انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة وتناولها بلاذع التعليق والهجو ؛ وظهرت فى ذلك الحين قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، فى التشهير بحجر المنصور على هشام ، وعلائقه بصبح . فمن ذلك ما قيل على لسان هشام فى الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه ؟
وتملك باسمه الدنيا جميعاً ومامن ذاك شئ فى يديه [2] ؟

ومن ذلك ما قيل فى هشام وأمه صبح ؛ وقاضيه ابن السليم :

اقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب فى مكتب وأمه حبلى وقاض . . . [3]

وهذه المقطوعات اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان يثيره موقف صبح وسمعتها من الحملات المرة . وتتفق الرواية الاسلامية فى الاشارة الى هذه العلائق الغرامية بين صبح والمنصور ، وان كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ؛ ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة لكاتب مغربى يدافع فيها عن المنصور ويدفع عن صبح تهمة شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب [4]

ولم يخمد جذوة هوى صبح زواج صاحبها المنصور ، بل كان موقفها من هذا الزواج دليلاً جديداً على إخلاصها ووفائها ، وكانت زوج المنصور اسماء ابنة غالب مولى الحكم وصاحب « مدينة سالم » ، وهى فتاة بارعة الجمال والخلال ؛ زفت إلى المنصور سنة ٣٦٧ ، فى حفلات كانت مضرب الأمثال فى البذخ والبهاء ؛ ونظم الاحتفال فى قصر الخليفة ذاته باشراف الخليفة ، وبعبارة أخرى باشراف أمه صبح ؛ وأغدقت صبح على العروس رائع الهدايا والتحف ؛ وكان زواجا سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة [1] وان كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره المنصور ، ووقعت بينهما حرب هزم فيها غالب وقتل

***

لبث المنصور زهاء عشرين عاماً يقبض بيديه القويتين على مصاير الأندلس ، ويسير من ظفر إلى ظفر ، ويثخن فى ممالك أسبانيا النصرانية ؛ ولم تبلغ أسبانيا المسلمة مابلغته فى عهد المنصور من القوة والسؤدد ، ولم تبلغ اسبانيا النصرانية مابلغته فى عهده من التمزق والضعف ؛ وقد غزا المنصور زهاء خمسين غزوة ، وجاز إلى أمنع وأنأى معاقل أسبانيا النصرانية ، ومع ذلك لم يشغله تعاقب الغزو عن مهام السلام ؛ فكانت الأندلس فى عهده تتمتع بفيض من الرخاء والأمن ؛ ووطد أيضاً سلطة حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى ، وكان قد فتح فى عهد الحكم المستنصر ؛ ولكن المنصور كان يفرض على الأندلس حكما من الطغيان المطبق ، وكانت وسائله المنيفة الصارمة ، الدموية فى أحيان كثيرة ، تذكى من حوله أوار البغض والتربص ؛ وكان اجتراؤه بالأخص على مقام الخلافة واستلاب سلطاتها ، والحجر على صاحبها الشرعى ، تقدمه دائماً إلى الشعب فى ثوب الطاغية المتصب ، فكان الشعب يعجب به ولا يحبه . على أن المنصور كان يسير دائماً فى طريقه ، معتمداً على قوته ووسائله ، لايحفل برأى الزعماء أو الشعب ؛ فلما استتب له كل أمر ، واجتمعت فى يده كل السلطات ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الملك ومظاهره ، فبدأ بالتخلى عن لقب الحاجب ، وخلعه على ولده عبد الملك ، وهو فتى فى الثامنة عشرة ؛ وتسمى بالمنصور فقط ؛ ثم أصدر أمره بأن يخص دون سائر أهل الدولة بلقب « السيادة » فى المخاطبات ، وتسمى عندئذ « بالملك الكريم » [2] وكانت هذه دلائل واضحة على حقيقة الغاية التى يعمل لها المنصور ويرجو أن ينتهى إليها ، وهى أن

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ — ابن الابار (الحلة السيراء) — ص ١٤٩ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩١ وما بعدها
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً الى المقتدر العباسى « الرسالة »
(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٠ — نفح الطيب ج ١ ص ٢٨١
(٤) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٨٢

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ — نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ — دوزى ج ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

ينسخ الخلافة الأموية حكماً كما نسخ سلطانها فعلاً ، وأن ينشىء دولة عامرية تتمتع بمراسيم الملك والخلافة .

ولم تك ثمة معارضة يخشى بأسها المنصور ؛ وكان هشام المؤيد قد أشرف على الثلاثين من عمره ، ولكنه لبث خاملاً ضعيف العزم والارادة ، لاتسنده أية قوة ؛ وقد سحق المنصور كل زعامة وكل قوة خصيمة ، وجمع حوله الجيش . ولكن كانت ثمة قوة لم يحسب المنصور حسابها : تلك هى صبح أو « أورور » صاحبته القديمة ، وعونه السابق فى الوصول إلى ذرى الحكم ، وفى الحجر على الخليفة واستغلال ضعفه . ثارت صبح لما تبينته من نيات المنصور وغاياته ، وكانت صبح يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها ، وقد تصرم ذلك الحب الذى شغفها بالمنصور دهراً ، وأضحت تبغض ذلك الرجل الذى سلب ولدها كل سلطة ؛ وأخذت تبث فى نفس ولدها هشام مثل هذه العاطفة ، وتدفعه بكل ما وسعت إلى مناوأة المنصور ومنازعته واسترداد سلطانه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ؛ وأذاعت بواسطة أعوانها من الناقمين على المنصور دعوة شديدة ، واتهمته بأنه يسجن الخليفة الشرعى ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . ولم تقف عند هذا الحد ، بل فكرت فى القيام بمحاولة عملية لمقاومة المنصور وإسقاطه ، ففاوضت زيرى بن عطية حاكم المغرب الأقصى من قبل المنصور وأرسلت إليه الأموال سراً ليحشد الجند وليتأهب للعبور إلى الأندلس ؛ وكان زيرى بن عطية أقوى زعماء المغرب ، وكان مخاصاً لبنى أمية يقوم بدعوتهم ويؤيدها ؛ فلبى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته وحجره على الخليفة . ولكن المنصور فطن إلى المؤامرة قبل نضجها فبادر برؤية هشام المؤيد سرا ، وتفاهم معه ، وانتهى بأن أخذ منه تفويضاً كتابياً جديداً بالحكم ؛ ونقل الأموال من القصر إلى الزاهرة حتى لاتمتد إليها يد خصومه . ثم تحول إلى زيرى بن عطية فعزله من منصبه وقطع رواتبه ؛ فرد زيرى بأن محا اسمه من الخطبة وطرد عماله بالمغرب ، وتأهب للحرب . وبعث المنصور إلى المغرب الأقصى جيشاً ضخماً بقيادة مولاه واضح فهزمه زيرى وارتد إلى طنجة ؛ واستمرت الحرب حيناً بين الفريقين ، وسار المنصور بنفسه إلى الجزيرة الخضراء وبعث إلى المغرب جيشاً كثيفاً بقيادة ولده عبد الملك ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة هزم فى نهايتها زيرى ومزق جيشه وفر إلى الصحراء الداخلية (٣٨٨ هـ — ٩٩٧ م)(١)

***

وهكذا فشلت صبح فى محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح فى الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له فى كل شىء ، ولم يكن الخليفة الأموى سوى شبح فقط . ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية بالأندلس قد انتهت فعلاً بانتهاء عهد الحكم المستنصر ، ولم يكن استمرارها صورة على يد هشام المؤيد ، أيام المنصور ، ثم تجددها بعد ذلك على يد الزعماء الثائرين من بنى أمية ، إلا مرحلة السقوط النهائى . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدى ، لجأت الى السكينة والعزلة ؛ فلا نسمع عنها بعد ذلك فى تاريخ الأندلس ؛ ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ؛ ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور (سنة ٣٩٣ هـ — ١٠٠٢ م) أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الأسلامية فى ذلك إن وفاتها كانت أيام ولدها هشام(٢) . والظاهر انها توفيت قبيل وفاة المنصور حوالى سنة ٣٩٠ هـ ، لأننا لا نعثر باسمها بعد ذلك فى حوادث الأندلس . وقد أورد صاحب يتيمة الدهر للشاعر الأندلسى أبى عمر بن محمد بن دراج القسطلى قصيدة رثى فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » نقتطف منها ما يأتى :

هل الملك يملك ريب المنو ... ن أم العز يصرف صرف القضاء
ألم تر كيف استباحت يدا ... ه حريم الملوك وعلق النساء
هو الرزء أودى بعزم الملو ... ك مصاباً وأودى بحسن العزاء

***

وحاشا لرزئك أن يقتضيـ ... ـه عويل الرجال ولدم النساء
لبيض أياديك فى الصالحا ... ت تمسك وجه الضحى بالضياء
فتلك مآثرها فى التقى ... وبذل اللهى مابها من خفاء
جزاك بأعمالك الزاكيا ... ت خير المجازين خير الجزاء
ولقيت من ضنك ذاك الضريح ... نسيم النعيم وطيب الثواء

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ — دوزى — ج ٢ ص ٢٥٢ وما بعدها
(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠

فى الســـــعادة

للورد افبرى من كتابه (فائدة الحياة)

ترجمة الأستاذ بشير الشريقى

لا تسير الرفاهيـة مع السعادة دائماً ، وإن كثيراً من الناس بؤساء وإن كانوا يملكون فى الظاهر كل ما من شأنه أن يجعلهم سعداء .

يمكن أن تقدم الطبيعة إلى أحب عشاقها الغنى والقوة والشهرة والحياة الطويلة ، ولكنها لا تستطيع أن تجعله سعيداً . إذ يجب أن يعتمد فى ذلك على نفسه .

إذا لم تكن عناصر السعادة موجودة فى نفس الرجل فان كل ما فى العالم من جمال ومشاهد وملذات ومبهجات لن تستطيع أن تهبها له

أ كثر ما تتوقف عليه السعادة انما هو ضبط الرجل لأفكاره وقيادته لها متجنباً ماهو مؤلم ، مستعيداً أجمل الذكريات .

يقول «شوبنهور» — يرى أحدهم العالم قاحلاً مظلماً حقيراً ، ويراه الآخر غنياً مبهجاً مملوءاً بالمعانى .

السعادة شىء يحتاج إلى المران كالعزف بالناى .

إذا سرنا على الصراط المستقيم وصلنا إلى ماتصبو إليه نفوسنا ولكن حذار أن نبحث عن هذا الصراط باهتمام شديد .

يقول « فرانكلن » — اتبع السرور يتبعك .

لاتفكر كثيراً فى نفسك ، أنك لست الوحيد فى هذا العالم ،

يقول «راسين» — لاتفتش عن اللهو ، ولكن كن مستعداً دائماً أن تلهو .

إنه من الصعب أن تجعل الحياة تعاقب لذائذ ،

يقول « تشفورت » — إن أضيع يوم فى حياتنا هو اليوم الذى لانضحك فيه .

إذا كان اليوم مظلماً فأضئه .

يقول أحد القساوسة — إن البشاشة هى تسعة أعشار المسيحية(١)

يحتاج النزاع إلى شخصين فلا تكن أنت أحدهما .

لاتدع الشمس تغرب على غضبك .

إن أنت فكرت فى نفسك كنت تعساً ، وان أنت فكرت فى غيرك كنت سعيداً .

يتذمر بعض الناس دائماً ، ولكنهم مساكين لم يدركوا أنه لو قدر لهم فولدوا فى جنات عدن لوجدوا هنالك أشياء كثيرة يتشكون منها ويتذمرون .

الغبطة مقوٍ أخلاقى عظيم ، وكما أن الشمس تفتح الأزهار وتنضج الأثمار ، كذلك الغبطة

الشعور بالحرية والحياة يبعث فينا كل بذور الوجود .

مادام الانسان محافظاً على بشاشته فهو محافظ على قوته وشبابه .

يظن بعض الناس أن السرور دليل عدم التفكير وهذا خطأ ، إذ ليس من علاقة ضرورية بينهما .

لا نستطيع أن نمنع آلام هذه الحياة عنا ، ولكننا — إذا أردنا — نستطيع أن نسمو فوقها ؛ ولذلك يجب أن نعلق على جدران غرفة ذكرياتنا صوراً جميلة ضاحكة . وكما يلأم الزمن الجراح يشفى الزمن الأحزان .

يقول « كوكريتوس » يخاف بعض الرجال فى النور بقدر ما يخاف الأطفال فى الظلام .

إن العقل المثقف ، ولا أعني بالمثقف عقل الفيلسوف ، بل كل عقل فتحت له منابع المعرفة فعرف كيف يمرن قواه ، سيجد فى كل ما يحيط به منابع للسرور والتسلية لاينضب معينها ؛ سيجد فى بدائع الفن غبطة ، وفى جمال المرأة راحة ، وفى خيال الشعراء وحوادث التاريخ سلوة ، وفى عقائد الناس تفكهة .

الطبيعة نعمة لمن لا يكفر النعمة .

لا الغنى ولا الجاه بضامنين لك السعادة .

قد تكون غنياً وعظيماً وقوياً من غير الحب والاحسان والاطمئنان ، ولكنك لن تكون سعيداً .

لقد اتفق أحكم الحكماء على أن السعادة لايمكن أن تشترى بالمال ولا أن تنال بالقوة .

يقول « هريو » لسيمونيدس : لقد أغرت مفاخر الأمارة وعظمة الملوك ورفاهيتهم السواد الأعظم من الناس ؛ أنا لا أعجب من ذلك ، لأن الناس كما يظهر لى يحكمون على بعضهم بمجرد الظواهر فقط ؛ إننى أؤكد لك ياسيمونيدس ان الملوك يملكون أقل نصيب من «المسرات العظيمة» ، وأعظم سهم من «البلايا العظيمة»

لاينبغى أن نخاف الموت ، فالموت كما يقول « باسكال » هو المصيبة الوحيدة التى لانشعر بها .

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

(١) ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه :

بنى إن البر شىء هين وجه طليق وكلام لين

حول كتاب «هتلر»

قضية طريفة أمام القضاء الباريسي

نعرف أن الهر أدولف هتلر رئيس الحكومة الألمانية الحالية ، وزعيم الحزب الوطني الاشتراكي الألماني ، كتاباً كتبه أيام المحنة ، وقت أن كان زعيم جماعة صغيرة وحزب ناشيء ، وكان وقتئذ معتقلا فى إحدى القلاع يقضي حكما صدر عليه لاشتراكه فى مؤامرة دبرت فى ميونيخ لقلب الحكومة . ولم يكن لهذا الكتاب الذى صدر فى سنة ١٩٢٥ بعنوان جهادى Mein Kampf ، أهمية سياسية أو أدبية ، وفيه يقص هتلر سيرة حياته ، ويعرض برنامج حزبه ، وآراءه السياسية فى أسلوب عادى لا يمتاز بشيء إلا بما يتخلله من المبادىء والآراء المتطرفة . فلما تطورت الحوادث ، وغدا هتلر زعيم أعظم الأحزاب الألمانية ، واستولى على مقاليد الحكم ، اتجهت الأنظار الى كتابه ، وتخاطفته الملايين ، وطبع مراراً عدة ، وترجم الى عدة لغات ، واتخذ أهمية جديدة يسبغها عليه مركز مؤلفه وما انتهى اليه من السلطان والنفوذ

وقد رأى أحد الناشرين الباريسيين أن يخرج الكتاب باللغة الفرنسية لما للكتاب من خطر فى نظر الجمهور الفرنسى بعد أن غدا مؤلفه أعظم خصم لفرنسا ، فأرسل الى شركة فرانز أيهر الألمانية التى فُوضت جميع حقوق النشر يستأذنها فى الترجمة ، فأجابت بالرفض المطلق . والظاهر أن ذلك يرجع الى أسباب سياسية أكثر مما يرجع الى أسباب مالية ، لأن الهر هتلر لم يشأ أن يطّلع الشعب الفرنسى على ما كتبه ، وفيه كثير مما لا يدعو الى الطمأنينة . ولكن الناشر الباريسى لم يعبأ بهذا الرفض ؛ وأخرج لكتاب « جهادى » ترجمة فرنسية بديعة كاملة بقلم ثلاثة من الكتاب المعروفين . فبادرت شركة فرانز أيهر الألمانية الى رفع الأمر الى القضاء الفرنسى ، واستصدرت أمراً بالحجز على النسخ المطبوعة لدى الناشر الباريسى ، ورفعت عليه دعوى تطلب مصادرة النسخ المحجوزة ، والحكم عليه بغرامة قدرها ألف فرنك عن كل نسخة ، والحكم عليه فوق ذلك بتعويض مالى كبير

وكانت نظرية الشركة الألمانية أمام المحكمة أن نشر الترجمة دون إذن يعتبر اعتداء واختلاساً ، وقانون سنة ١٧٩٣ الفرنسى الذى يحمى الملكية الأدبية يعتبر ذلك « تزويراً » تترتب عليه جميع حقوق التعويض والمصادرة

ولكن الناشر الباريسى أجاب على لسان محاميه الأستاذين جابيه وفيليب لامور أن هذه الحالة لا يشملها قانون سنة ١٧٩٣ . ذلك أنه لا يمكن أن نشبه كتاب هتلر بكتاب عادى أو رواية لمؤلف عادى ؛ والواقع أن كتاب « جهادى » إنما هو كتاب عمومى لرجل من الرجال العموميين ، ورؤساء الحكومات الذين تغدو كتاباتهم ملكا للجميع على نحو ما يغدو تصريح وزارى أو خطبة عرش ؛ فلكل إنسان الحق ، بل ومن واجب كل إنسان يهمه الاطلاع على الشئون العامة أن يعرفها وأن يقرأها . هذا الى أن العقد الذى تزعم الشركة الألمانية أنها حصلت بمقتضاه على حقوق النشر لا يوجد ولم يقدم ، وليس لديها غير تصريح شفوى من « الزعيم » هتلر . ورفع الدعوى بهذه الصورة باطل ، وكان واجباً على هر هتلر ، إذا شاء أن يحمى حقوقه أن يتقدم بنفسه ، وعلى أساس الاعتبارات السياسية التى هى جوهر القضية ؛ ولكنه لم يكن لديه من الشجاعة أو الصراحة ما يحمله على اتباع هذا الطريق ، ولهذا آثر أن يتقدم بواسطة شركة للنشر وعلى أساس الاعتبارات التجارية

وقد أثارت هذه القضية اهتماماً كبيراً فى الدوائر القضائية والأدبية ، ولا تزال منظورة أمام محكمة السين التجارية ، رهن صدور الحكم فيها . على أنه يرجح منذ الآن أن يأخذ القضاء الفرنسى بنظرية الناشر الباريسى فى اعتبار كتابات الرجال العموميين وأقوالهم ملكا مباحاً يسوغ لكل إنسان أن يحصل عليه وأن يذيعه ؟

بشير الشريقي
المحامي

مادمنا كائنين فما ثمة موت . وإذا جاء الأجل فما ثمة وجود .

يجب ألا ننشد السعادة فى الخارج بل فى نفوسنا ، فى عقولنا . الجنة فيك ، فان أنت لم تستطع أن تكون سعيداً على الأرض فكيف تنتظر أن تكون سعيداً فى السماء ؟

يقول « سقراط » : خير الرجال من يسعى لضبط نفسه ، وأسعدهم من يشعر بأنه ضابط لها » .

خذ الغبطة إلى بيتك
واسمح لها أن تنمو ودارها .
إنها ستخفف من آلامك وأحمالك
وتغني لك وأنت تجاهد فى حراثة أرضك .
إنه لعمل عادى أن تكون مسروراً .

« شرق الأردن »

صورة من صدر الإسلام

عبد الله بن مسعود

بقلم محمد طه الحاجري

أخذ الناس فى مكة يحسّون شيئاً جديداً بداخل روح الحياة عندهم ، وينشر ظلالاً خفيفة من حولهم ، ويبعث فى أنفسهم شعوراً شديد الغموض لا يتبينون كنهه ولا يتحققون أمره ، شأن الجماهير فى فجر الأحداث الخطيرة . وكأن لهم من وراء الحواس الظاهرة حساً باطناً لا يستند اليها فيما يدرك ، ولا يدرك إلا المعنى العام الذى لا يحدد . وكان الجو فى تلك المدينة المقدسة يزخر بشتى التيارات ، ويموج بلمحات النبوة ونفحات السماء ، كما يموج الأثير بأمواج الكهرباء : تحمل فى أطوائها معانى القوة دون مظاهرها ، وتخفى فى أثنائها الصوت المجلجل ، والضوء الساطع ، كامنة كمون الروح ، خفية خفاء القدر ، حتى تتاح لها الظروف المواتية ، والحالات الملائمة ، فتجهر وتستعلن وتؤدى رسالتها . . . وكذلك كان الأمر فى الأيام الأولى للبعثة : تنزل الملائكة وتصعد ، ويترادف الوحى ويمتد ، ويزخر الجو بنفثات الرسالة ، والناس مستمرون فى شأنهم ، لا يحسون شيئاً إلا حفيفاً لا يعبأون به ، ولمحات خفيفة لا ينظرون اليها ، حتى تصادف قلباً أعدّ لها ، و « جهازاً » صالحاً لقبولها ، فتجهر وتستعلن وتؤدى رسالتها . . .

وفى يوم من هذه الأيام ، خرج الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ومعه صاحبه وصفيه أبو بكر ، وأخذا يسيران فى ظاهر مكة ، على نجوة من العيون ، وأمنة من الأسماع . يتناجيان نجوى المودة الصادقة ، ويتحدثان حديث العقل المتزن ، وقد أقبل الرسول على صاحبه ليجد عنده راحة نفسه ، وطمأنينة قلبه ، لقاء ما ألقى عليه ربه . وبينما هما كذلك لقيا شاباً فى نحو العشرين ، ضئيل الجسم ، ضعيف المنة ، آدم البشرة ، تلمع عيناه ذكاء وعزيمة وصفاء سريرة يرعى قطيعاً من الغنم ، هو ذا عبد الله ابن أم عبد الهذلى ، مولى أخوال الرسول من بنى زهرة ، يرعى غنماً لابن أبى معيط أحد السادة المتجبرين من بنى أمية . فوقفا عليه واستسقياه بعض اللبن فسقاهما ، حتى اذا ما فرغا من شرابهما أقبل بدوره عليهما ، وأخذ يسائل الرسول عما سمع بعض الناس يهمسون به ، من كلام بدع تتضاءل أمامه كل صنوف الكلام ، وأمر جديد يتنزل عليه من السماء ، يدعو الى عبادة الله وحده ونبذ الأصنام . فهش له الرسول ومسح على رأسه ، وجعل يقرأ عليه وإن صوته ليتجاوب بين قلبه وعقله ، وجعلت كلمات التنزيل تتنزل على نفسه ، كما تتنزل قطرات الماء على حلق يتحرق ظمأ ، حتى شرح الله صدره للأسلام . ومضى الرسول وصاحبه ، رضى النفس مغتبط الضمير . وخلفا عبد الله وقد ملكته نشوة هذا الأمر ، وقد جعلت كلمات الرسول يتردد صداها بين سمعه وقلبه ، وهو يحسب أنه قد ظفر بسعادة الأبد . وما يزال كذلك حتى يقبل الليل ، فينطلق الى دار الأرقم ، يلقى الرسول وصحبه يتذاكرون آيات التنزيل ، ويضرعون الى الله أن يسدد خطاهم ويمكن لهم دينهم .

أى رجل هذا ؟ شاب يافع محروم من أسباب القوة ووسائل النعة ، ليس له عشيرة يلجأ اليها ، ولا عصبة يعتمد عليها . ضعيف فى ذاته الجسمية ، قضيف العظام مترهل العضلات مجرد من وسائل الحياة المادية ، يعتمل نفسه لأشراف مكة فى الخدمة ورعى الغنم ، لقاء ما يحفظ عليه روحه ويمسك عليه الرمق . ثم لا يعبأ بعد هذا أن يخرج عليهم ، وهو يعلم مقدار حميتهم لدينهم : وتعصبهم لأنفسهم ، ولا يأبه لما لابد أن يصيبه فى هذا السبيل من تصرم وسائله ، واستهداف حياته فى تعرضه لعداء سادته وهم من هم : سدنة البيت الحرام ، والقوام على ميراث اسماعيل عليه السلام ، والخيرة المتخيرة من أبناء العرب ، وأصحاب الحول والطول فى كل أنحاء الجزيرة .

ولكن عبد الله كان يملك من أسباب السماء بقدر ما حرم من وسائل الأرض . كان قوى النفس ، متين الخلق ، بقدر ما كان هزيل القوام ضعيف الجسد . كان يشمر بالسؤدد الروحى يوجهه ويعلى عليه ، وإن كان يضطرب فى أسمال الخدمة وأهدام الحاجة . فلم تكن الضرورات المادية لتخضع روحه أو تغلب ضميره ، وما كان للخوف أن يغشى بصيرته فيخلد الى الأرض . وكذلك انطلق

مع روحه فاعتنق الاسلام وأخلص له ، وأحب محمداً الى غاية ما يبلغه الحب الروحى ، فاصطفاه الرسول ليكون تابعه الأمين ، وخادمه الذى ليس من دونه حجاب ، فكان يرى وكأنه واحد من آل بيته ، مما كان يركن اليه ويطمئن له ويتلطف معه ويحسن عشرته ، فأخلص للرسول الاخلاص كله ، ووصل حبه له الى قرارة قلبه ، حتى صار جزءاً من حياته ، بل لقد اصطبغت حياته كلها به ، وتأثر به فى مخبره ومظهره ، فكان أقرب الناس له سمتاً ، وأدناهم اليه دلاً ، وأشبههم به فى سكينته ووقاره .

* * *

مضت الأيام والأسلام نجوى الضمائر ، وحديث القلوب ، وهمس الشفاه . والقرآن لا يعدو بيت الرسول ودار الأرقم وأطراف مكة القاصية . ثم جاء أمر ربك فأتيح للخافية أن تظهر ، وللسر أن يستعلن ، وللدعوة أن تأخذ سبيلها فى وضح النهار ؛ واجتمع ذلك النفر من المسلمين يتدبرون الأمر ، وكانوا يعرفون موضع الأحساس الدقيق فى نفس العربى ، وموطن التأثر البليغ من قلبه : إنما هى تلك الحاسة البيانية المرهفة التى أمسكت بقياده ، وسيطرت على حياته ؛ وجاء القرآن وافياً بها متحكما فيها ؛ فكان من الطبيعى أن يكون سبيل الدعوة . فقالوا من لقريش يسمعها هذا الكلام ؟ فانبرى عبد الله يقول : أنا لها . وهو يعلم مقدار مايستتبعه هذا من الأذى ، ولا عاصم له من قوم ولا عشيرة . فراجعوه فى هـــذا الأمر ، وبصروه بعاقبته ، وذكروه ضعفه ووحدته ؛ فأبى أن يفوته هذا الشرف ، أو أن يرده عنه اعتبار لا قيمة له فى ميزان المجد . فاعتصم بإيمانه القوى ، ويقينه الثابت أن لا إله إلا الله ، فلا نافع ولا ضار إلا الله ، وأن لو اجتمعت الجن والأنس على أن ينالوه بشىء ما استطاعوه الا بقضاء الله وقدره ، وأحبب به أذى فى سبيل الله وإعلاء كلته . ثم تخير غداة الغد حين تكون قريش مجتمعة فى أفناء الحرم حول الكعبة ، يدبرون أمورهم ، ويتحدثون عن أموالهم ، ويتكهنون بمقادير أرباحهم ويتراهنون على ما يدور بخواطرهم ، وتذهب اليه مطامعهم وتراوحهم به مخاوفهم . فلما كان موعده أقبل الى البيت الحرام ، واستقبل الكعبة بوجهه ، وأخذ يتلو من كتاب الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الرحمن علم القرآن ، خلق الأنسان علمه البيان ، الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

أى صوت رهيب دوى فى أرجاء الحرم ، فالتفتت إليه أسماعهم ، ودهشت له قلوبهم ، واستطارت منه ألبابهم ، وأذهلهم عما هم فيه من حجاج ولجاج فى تجارتهم وحياة أموالهم ؟ ! فانصرفوا إليه يقولون : ما شأن ابن أم عبد وماذا يقول ؟ فلما علموا أنه يتلو بعض ماجاء به محمد أقبلوا عليه يضربونه فى وجهه ويدفعونه فى صدره ، ما شاءت لهم الحمية ونخوة الجاهلية ، حتى نالوا منه وتركوا آثار الدم فى وجهه . ثم عاد إلى أصحابه وهو يقول : « ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً » فقالوا له : حسبك . وتم لهم ماشاءوا .

استشرف عبد الله إذن لعواصف النكير والاستهزاء ، واستهدف لسهام التنكيل والاعتداء . إن كان فى بيت الرسول فهناك جيرانه : أبو لهب وعقبة بن أبى معيط والحكم بن العاص وعدى بن حمراء الثقفى يترصدون له وينالون منه . وإن كان فى السوق فما شاءت جماهير قريش من أذى وتجهم وسخرية ، وإن كان فى المسجد ، وقد جلس إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فى المستضعفين من أصحابه فكذلك ؛ وما يفتأ القوم يمرون بهم ، فيتغامزون عليهم ويسخرون منهم ، ويقول بعضهم لبعض : « أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، ولو كان خيراً ما سبقونا إليه »

وهكذا مضت الأيام بعبد الله ، وما يزيده هذا إلا صفاء فى نفسه ، وصلابة فى يقينه ، واستشراقاً لهدى الله جل شأنه ، وسنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصنعت منه هذه الخطوب ما تصنع حرارة الأرض وضغطها من الماس وكرائم الأحجار ، فأصبح كالماسة الصافية صلابة وإشعاعاً .

فلما اعتدل ميزان الأمور ، وتمت كلمة ربك الحسنى على المسلمين ، وأصبحت القوة فى جانب الحق ، وأصبح الاسلام فى يثرب صاحب الكلمة ، كان عبد الله سيفاً قاطعاً ونجماً ساطعاً ، فشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، لم يقعد به ضعفه . ولم يخلفه هزال جسمه ، إذ كان قوى القلب ثابت الايمان . وكانت بصيرته فى الدين قوية الأشعاع دائمة السطوع ، حتى لقد أوصى

الرسول صلى الله عليه وسلم بالتمسك بعهده ، وشهد له كبار الصحابة كعلى وحذيفة ، ومكانهما من هذا الأمر ما نعلم ، وكان من العلم بالقرآن فى المكان المرموق : ما من سورة فى القرآن أو آية من سورة إلا وهو يعلم سبب نزولها ، ومكان مجىء الوحى بها ، لا ينكر عليه ذلك منكر . ولقد كان إيمانه يتلألأ فى قراءته كما كان يتألق فى جبينه ؛ حتى كان يحبب إلى رسول الله أحياناً أن يسمع القرآن منه . فقال له مرة : اقرأ على سورة النساء . قال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . فقرأ عليه حتى بلغ قوله تعالى مخاطباً رسوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » فبلغ التأثر من الرسول مبلغه ، وفاضت عيناه بالدموع .

وحين نذكر فصاحة منطقه ، وخلوص لسانه ، لا ننسى أنه هذلى الأصل ، مع عرق فيه يمت الى زهرة ؛ ثم هو مع هذا قرشى المولد والمربى ؛ فلا غرو أن كان جيد الأداء حسن القراءة ، بعد أن اجتمعت له مقومات لسانه ونصاعة إيمانه .

***

انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، فانتقلت الدعوة الى الشمال ، تكافح بالسيف ولاة فارس وعمال الروم ، فما كان أسرع عبد الله الى الجهاد فى سبيل الله ، وقد مكن له فقهه وبصره وورعه أن يتولى أمر الأنفال ، فكان لا يفتأ فيما بين هذا يعلم القرآن ، ولا يترك فرصة دون أن ينتهزها لتفهيمه والتبصير به ، وإنه لجالس ذات مرة فى حمص وقد جىء اليه بسبائك من الفضة ، فجعل يذيبها ، وإنها لتتلون ألواناً ، فرأى فى ذلك صورة بينة للمهل الذى جاء به القرآن ، فالتفت الى أصحابه يقول لهم : أتدرون ما المهل ؟ هذا أشبه شئ به . لله أنت يا ابن مسعود ! ما كان أبصرك بكتاب الله وأحرصك عليه !

ثم بعثه عمر إلى أهل الكوفة معلماً حين بعث عماراً عليهم أميراً ، وكتب اليهم هذه العبارة التى تدل دلالة واضحة على قيمة ابن مسعود فى نظر أصدق الصحابة بصراً ، وأنفذهم رأياً ، وأعرفهم بقيم الرجال : « إنى بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله ابن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أهل بدر ، فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » وكفى بهذه الجملة الأخيرة شاهداً بمكانة الرجل .

فلبث فيها ما لبث قيما على بيت المال ، قائما بتعليم القرآن وبث تعاليم الاسلام ، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان فوق هذا يضرب بخلقه وورعه خير الأمثال ، حتى كان أصحابه يقولون : « ما رأينا رجلا أحسن خلقاً ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا من ابن مسعود » . فكون فيها مدرسة تحبه وتتعصب له ، فلما كان عثمان وأخذ يقلب بين الولاة والعمال ، بعث الى ابن مسعود يستقدمه اليه ، فجزع أصحابه أيما جزع ، واستشعروا أثر النازلة ، إذ يوشك أستاذهم الذى وهبهم قلبه وألهمهم حبه أن يفارقهم ، فاجتمعوا اليه يرجونه أن يقيم بينهم ، وله عليهم أن يمنعوه مما عسى أن يصل اليه من مكروه ، ولكن عبد الله ما كان ليعبأ بالمكروه يصيب شخصه ، فما أهونه فى ذات نفسه لقاء الخير يصيب أمته ، ولكنه كان يرى ببصره الى ما وراء الشخوص الماثلة أمامه ، فيرى بوادر شر تتربص بالأمة الدوائر ، ودلائل فتنة توشك أن تنقض . وما كان له أن يفتح بعصيانه ثغرة فى بناء المسلمين ، فصرف القوم عنه وهو يقول : « إن له على حق الطاعة ، وأنه ستكون أمور وفتن ، فلا أحب أن أكون أول من فتحها » فمضوا عنه وهم يشدون على قلوبهم ، ثم أخذ أهبته وسار الى المدينة .

وقد لبث فيها وإن الفتن لتموج بالناس من حوله وهو قار ساكن ، يسأل الله العصمة وإطفاء الثائرة ، ولا يكاد يلفته شئ إلا كتاب الله الذى تلقاه عن رسول الله ، فهو موضع عزته ، ومناط كرامته .

ولم يطل به العهد حتى اصطفاه الله لجواره ، رضى الله عنه ؟

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

القضاء عند قدماء المصريين

بقلم حامد أسعد محمد عاشور

قبل أن نطرق هذا الموضوع يجب أن ألفت نظر القارئ الى أن مصر كانت على درجة عظيمة من الرقى والحضارة ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان موطدة الدعائم ؛ وأن النظم الديمقراطية التى يدعى الأوربيون اليوم أنها من بنات أفكارهم أو مما ورثوه عن الأغريق والرومان ، لم تكن إلا وليدة النظريات السياسية الفرعونية فى عصور سحيقة ؛ وأن الحريات المدنية والسياسية وحماية الملكية الفردية التى يباهى بها القرن العشرون بعد الميلاد ، عُرفت فى مصر وتوطدت أركانها فى القرن العشرين قبل الميلاد تحت حكم ملوك مصر وفراعينها العظام .

كذلك قبل أن أبدأ الكلام أرى لزاماً علىّ أن أذكر أنني استقيت معلومات هذا المقال من مصادر تاريخ مصر المعروفة من كتابة على جدران القبور والمعابد الى ما كتب فى أوراق البردى ، ثم من محاضرات أستاذى الدكتور زكى عبد المتعال فى كلية الحقوق ، ثم من كتاب « وصف مصر » الذى وضعته الحملة الفرنسية بعد رجوعها من مصر .

***

يرجع أصل سكان البلاد الى بعض العناصر الاسيوية التى غزت مصر من الشرق ، ثم امتزجت بعناصر أخرى من السود آتية من الجنوب .

أما تكوُّن الأقليم فهناك رأيان فيه : الأول يقول إن البلاد كانت تتكون من قبائل اتحدت فكونت مدناً ، ثم اتحدت هذه فكونت أقاليم ومقاطعات ، ثم تكونت مصر العليا مستقلة عن مصر السفلى الى أن وحد سكوربيون ملك نخعة (مصر الوسطى) قسمى الأمبراطورية ، ومن بعده جاء مينا فأتم ما بدأه سلفه .

أما الرأى الثانى فيقول : إن مصر لم تمر بهذ التطور التدريجى بل أنها من يوم أن دبت الحياة فيها وهى أمة موحدة ، ويستند أصحاب هذا الرأى الأخير الى أن نهر النيل هو منبع الثروة الوحيد فى البلاد ، فلا يمكن إلا أن توحد جهود السكان فى سبيل الغرض المشترك وهو حب البقاء ، والدفاع عن أموالهم ومورد رزقهم ؛ هذا الى أن الوثائق وأوراق البردى لم تذكر أن البلاد مرت بالدور التطورى السابق ذكره .

ولما تكون الاقليم وجدت الأسرات . ففى عهد الأسرتين الأولى والثانية كان الحكم مطلقاً ، فكان الملكُ قائماً على الحق الالهى . وبذا كان الملك ممثلاً للسلطتين الزمنية والدينية ، فكان يصدر القوانين بنفسه وبمساعدة كتبة خصوصيين .

وفى عهد الأسرة الثالثة كان الملكُ مصدر جميع السلطات ، يستعملها بمساعدة موظفيه المدنيين لا الدينيين ، وكان خاضعاً للقوانين التى يصدرها وتسرى على شعبه ، وبذا كان الحكم مطلقاً مشبعاً بروح العدالة والأنصاف ، فالجميع متساوون فى الحقوق لا فرق بين أمير وحقير أو غنى وفقير ، وكانت الدولة إذ ذاك زمنية لا دينية أى لم يكن للكهنة نفوذ كبير فيها .

وفى عهد الأسرة الرابعة أصبحت الدولة دينية ، وأصبح الملك ممثلاً لرع وهاتور الآلهين ، وقدمت الديانة الملكية على الادارة الحكومية ، والكهنة على الموظفين ، وكانت هناك ادارات حكومية كثيرة ، منها (ادارة الرى ومياه النيل ، وادارة الحربية ، وادارة الاحصاء والضرائب ، وادارة المالية ، وادارة العقائد والتموين .) وكل هذه الادارات كانت تحت اشراف مجلس العشرة الملكى ، وهو يقابل مجلس الوزراء الآن ، وكان الوزير الأكبر هو الذى يرأس هذا المجلس .

هذه نظرة عامة عن اختصاصات السلطة التنفيذية ، أما فيما يتعلق بالتشريع والقضاء — وهو موضوع هذا المقال — فان القوانين عرفت ودونت فى مجموعات عند ما اخترعت الكتابة فى القرن الخمسين قبل الميلاد ، فوضع (تحوت) إله القانون مجموعته القانونية فى سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد .

وقد شملت هذه المجموعة الالتزامات والأموال وجميع العقود الأخرى ، والزواج والطلاق . وكان مما نص عليه فى هذا الشأن أن الزواج يتم بعقد مدنى بطريق الشراء ، ثم يجرى بعد ذلك احتفال دينى . أما العلاقة المالية بين الزوجين فكان يتفق عليها فى مشارطة الزواج على أحد أمور ثلاثة : (١) فصل مال كل من

الزوجين عن الآخر فيكون للزوجة فى هذه الحالة حق التصرف فى مالها بدون إذن الزوج (٢) تخصيص جزء من مال الزوجة لمساعدة الزوج على المعيشة العائلية ، ويكون للزوج فى هذه الحالة حق الانتفاع بأموال الزوجة وعليه ردها عند الانفصال (٣) اشتراك الزوجين فى بعض الأموال أو جميعها . وكان للنساء امتيازات كثيرة عللها المؤرخ ديودور الصقلى باحترام المصريين للآلـهة إيزيس .

أما الطلاق فقد أجازه الشارع الفرعونى كما أباح للمرأة أن تتزوج ، بشرط أن يكون لها الحق فى فسخ الزواج كما كان لها حق الرهن العام على أموال زوجها ضماناً لعدم تعرضها لخطر الطلاق منه

ويترتب على البيع الصحيح (باليمين والشهود) التزام البائع بتعهدين : الأول وموضوعه تسليم سندات الملكية — والثانى وموضوعه ضمان كل تعرض للمشترى . وينقسم عقد البيع إلى عقدين أحدهما اتفاق والآخر عينى وبه تسلم العين المبيعة .

وقد أخذت سائر العقود الأخرى صورة عقد البيع ، حتى أن الوصية كان يكتب لها عقد اتفاق بين الموصى والموصى له بشرط ألا يتم استلام الأخير للوصية إلا بعد وفاة الموصى وتسلم الوارث العقد العينى من باقى الورثة .

ولما تشتت مجموعة تحوت جاء بو خوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين وجمع شتاتها وعدلها فى مجموعة نظم بهـا جميع المعاملات المدنية والأحوال الشخصية فى مجموعة قوانين سميت باسمه كما سماها اليونانيون بمجموعة العقود .

ولما جاء أحمس أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين أصدر مجموعته المسماة باسمه . ثم جاء من بعده الملك نفريت فأعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد أن نقحها ، واستمر العمل بها حتى نهاية العهد الفرعونى . ثم طبقت على المصريين فقط فى العهد الأغريقى حتى جاء الرومان فمنحوا ممتلكاتهم الرعوية الرومانية فى عهد الأمبراطور كراكلا ، وبذا طبقت فى مصر القوانين الرومانية .

هذه نظرة عامة عن تطور التشريع فى عهد قدماء المصريين حتى الفتح الرومانى ، والآن نستعرض نظام المحاكم واختصاصاتها وسلطة القضاء فى الدولة .

كانت سلطة القضاء العليا فى يد الملك يباشرها إما بنفسه أو بواسطة موظفين مدنيين أو دينيين تبعاً لازدياد نفوذ الكهنة فى الدولة . وفى حالة ازدياد نفوذ رجال الدين (كما كانت الحال فى عهد الأسرة العشرين) كان يجرى العمل على استفتاء الالـه آمون فى القضايا الجنائية والمدنية ، فكان يقدم المتهم أمام تمثال الالـه فيقر بذنبه ، وإذا أنكر أعيد إلى السجن ، وفى حالة تعدد المتهمين كان الالـه يشير بيده إلى السارق مثلاً قائلاً هذا هو السارق ، فاذا أنكر أعيد إلى السجن حيث يلاقى أشد أنواع العذاب ، إذ لا يمكن تكذيب الآلـه ، ثم يعاد إليه فيقر بذنبه ويؤمن التمثال على كلامه ، ومن ثم يقدم إلى المحكمة بعد أن يقسم اليمين الآتية :

« أقسم بآمون والملك أن أقول حقاً ، ولئن كذبت فلأعودن إلى السجن ولأسلمن الى الحراس » ثم تأخذ المحكمة بأقواله وتحكم عليه .

وكان القضاة يقسمون يميناً أمام الملك بعد تعيينهم يتعهدون فيها بعدم طاعته إلا فيما يوافق العدالة . وكان يرجع إليه كثيراً عند تعذر الحكم فى بعض القضايا الهامة .

أما المحاكم فكانت على أنواع كثيرة : محاكم جزئية بالقرى والمدن ، ومحاكم ابتدائية فى عواصم الأقاليم ، ومحكمة استئناف عال بعاصمة الدولة ، ثم محاكم عسكرية للجند ، ومحاكم عائلية تفصل فى المسائل المتعلقة بالأسرة ، ثم محكمة للأموات يقوم الكهنة بتكوينها ومحاكمة كل ميت أمامها ، فان كان سيئ السيرة قضت بحرمانه من الدفن .

أما المحاكم الجزئية فكان يرأسها حكام المدن ، وقد أعطى لرئيس مقدرى الضرائب اختصاص الفصل فى المنازعات التى تقوم بين دافعى الضرائب والمقدرين .

أما المحاكم الابتدائية فكان يرأسها حاكم الاقليم وأعضاؤها الأعيان ، وكانت مختصة بالفصل فى المنازعات المدنية فقط ، وترفع أمامها عريضة دعوى وجميع الاجراءات أمامها كتابية .

أما المحكمة العليا فقد كان يرأسها رئيس أسرار الملك وأعضاؤها

كتمة الأسرار . وكان الملك يقوم بالقضاء فيها بنفسه ، وعلى الأخص فى القضايا الجنائية .

وكانت هذه المحاكم ترجع فى اختصاصها الى الادارة القضائية وهى تشبه وزارة الحقانية الآن .

وقد وجدت وظيفة النائب العام فى عهد الأسرة الثانية عشرة ، وكان يسمى إذ ذاك «لسان الملك» ولكن كان له بجانب سلطته القضائية ، وظيفة أخرى يقوم بها بصفته مدير شئون السراى الملكية وكبير الأمناء ، وكان له وكلاء فى الأقاليم يباشرون الدعوى العامة أمام المحاكم الجنائية .

وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة قسم القضاء الى مدنى وجنائى منفصلاً كل منهما عن الآخر ، وكان للجميع حق رفع الدعوى المباشرة الجنائية

هذا فيما يتعلق بالقضاء الجنائى العادى أى الذى يتعلق بأفراد الشعب ، أما القضاء الجنائى غير العادى الذى يتعلق بشخص الملك أو الدولة ، فقد كان موكولا الى محكمة خاصة تشكل من اثنى عشر قاضياً بعضهم من رجال الجيش ، وكان النائب العمومى هو الذى يختارهم بناء على أمر من الملك ذاته ، فتتكون المحكمة وبمجرد انعقادها تنقسم الى هيئتين تفحص كل منهما الدعوى على حدة ، ثم تجتمعان ، وكانت محاضرها مختصرة وسرية ، فكانت تصدر الأحكام دون نشر الأسباب ، وبالرغم من أن النائب العمومى هو الذى يختار هؤلاء القضاة فقد كان لا يتدخل مطلقاً فى عملهم حتى أن اسمه كان يأتى بعد أسمائهم وقبل أسماء كتاب الجلسة .

هذا ما كانت عليه حال القضاء فى عهد قدماء المصريين ، ومنها يرى القارئ أنها كانت على درجة عظيمة من الثبات والاستقرار ، وأن العدالة كانت مستتبة الأركان قوية الدعائم . وقد ظلت كذلك حتى انتهى العهد الفرعونى السعيد ، ودخل الأغريق البلاد فأفسدوا نظمها ، وقد كان للبطالسة شأن كبير فى طرد العدل من البلاد ، إذ أدخلوا امتيازات أعطوها للأغريق دون المصريين فى القضاء وفى الضرائب ، فكان على المصرى الغُرم ولهم الغنم ، ومما يدل على صحة ما قلت تقسيم المحاكم فى عهدهم الى إغريقية ومصرية ، وكانت الاجراءات أمام الثانية معقدة تتبع شكل القانون الضيق دون التوسع فيه ، بعكس المحاكم الاغريقية التى كانت تحكم طبقاً لقواعد العدالة والانصاف والقانون الطبيعى . وكان نظام المحاماة معروفاً فى المحاكم الاغريقية بعكس المصرية حيث كان الخصوم ملزمين بالدفاع عن أنفسهم كما كانت تقدم الوثائق والمستندات أمام المحاكم المصرية ، فاذا لم تكن كافية مُزقت علانية فى الجلسة ؟!

حامد أسعد محمد عاشور

فصول مدرسية في الأدب الدرامي

٣ – الرواية المسرحية

في التاريخ والفن

بقلم أحمد حسن الزيات

أجزاء العمل

العمل الروائي كالعمل الحكائي يتألف من العرض والتعقيد والحل.

فالعرض فكرة عامة مجملة عن العمل الروائي يتقدم بها الكاتب في الفصل الأول، ليهيئ الأذهان الى الحادث، ويشوق النفوس الى المتأخر، ويعرف الظروف والأمكنة والأشخاص الى المشاهد. وهو في الرواية أصعب منه في الملحمة، لأن أداءه لابد أن يكون بالعمل، ولأن الأشخاص وهم مشغولون بأعمالهم الحاضرة وأحوالهم القائمة، ملزمون بتقديمه الى المشاهدين في معرض حديثهم الخاص دون أن يظهر عليهم أنهم يريدون ذلك. فالطبيعية إذن هي الصفة الجوهرية للعرض. وهناك صفة أخرى لا تقل عنها خطورة، وهي أن يكون العرض وسطاً بين الغموض والوضوح: فيكون واضحاً بقدر ما يدلك على أدوار الأشخاص الأساسيين، ويضع يديك على الخيوط التي سيحيك العمل منها عقدته؛ وغامضاً بقدر ما يخفى عنك الحل ويدخر لك سرور المفاجأة.

ولقد كان عرض المأساة في الفن القديم بأن الطول، قوى الفعل، شديد الأثر؛ ولا تزال عروض اسخيلوس وسوفوكليس مضرب الأمثال في ذلك. فأصبح في الفن الحديث سريع الحركة، ضعيف التأثير، ولكنه أدق وأبلغ. إذ من القواعد الأولية المقررة في فن المسرح أن تتدرج الجاذبية في أجزاء الرواية، فتبدو ضعيفة في العرض، ثم تنمو على التدريج رويداً رويداً حتى تبلغ الغاية في النهاية. فاذا ما بدت قوية في صدرها فأسالت العيون من الرحمة، وخلعت القلوب من الرعب، كان من الصعب على الكاتب أن يدرج المواقف الروائية ويرتبها في الفصول. لذلك تجد كتاب العصر لا يضعون الجاذبية في العرض، وانما يكتفون بالتهيئة لها والدلالة عليها

إن العرض يسهل بناؤه ويخف أداؤه كلما اشتهر موضوع الرواية أو كان مما ألفه الناس في اجتماعهم، وعرفوه من طباعهم. ولذلك كان في الملهاة أسهل منه في المأساة، لأن العمل فيها قريب العلاقة محدود الفكرة، لا يخرج في معظم الأحوال عن دائرة الجماعة أو الأسرة. والمآرب والأخلاق، والعادات والأهواء، في هذه الدائرة معروفة مألوفة، توضحها كلمة وينبئ عنها منظر. ومع ذلك فلبعض الملاهي عروض بلغت حد الاعجاز من الفن كعرض ترتوف، والمريض المتوهم، والنساء العوالم لموليير.

والتعقيد هو الجزء الذي تشتبك فيه الظروف والوقائع والمنافع والمنازع والأخلاق في اعتراضها طريق البطل، فينشأ عن اشتباكها الشك والتطلع والقلق وفروغ الصبر وبذلك تقوى الجاذبية. وأفضل التعقيدات وأجدرها بالفن ما نشأت فيه العوائق من أخلاق الأشخاص وأهوائهم، لا مما يصدر عن غير طبيعتهم ولا إرادتهم، كالأخطاء القهرية، والحوادث الخارجية. ولابد أن يسير التعقيد على سنن الطبيعة حتى يسهل على المشاهد أن يتصور وقوع الحوادث كما يراها. ولحوادث الطبيعة كما تعلم نتيجة وعلاقة وتسلسل، فينبغي إذن أن يكون التعقيد سلسلة من الحوادث بينها من التواصل والتفرع ما بين الحلق

لم يكن للتعقيد في المآسي القديمة ماله اليوم من شأن وخطر. فقد قسم ارسطاليس الموضوع تقسيما كمياً الى أربعة أقسام. وهي المقدمة والوقائع والنتيجة والخورس. (والقسم الأخير قد حذف اليوم)، ثم تكلم عن التعقيد دون أن يعنى به، وقسم الموضوع الى بسيط وهو ما كان العمل فيه مستمراً متحداً ينتهي من غير انقلاب(١) ولا تعرف(٢)، ومركب أو معقد وهو ما اشتمل على هذين الموقفين أحدهما أو كليهما. فالقاعدة التي وضعها ارسطاليس

---

(١) الانقلاب (Révolution) هو أن يحدث في آخر العمل حادث يغير وجهة الأشياء فيرد الشقي سعيداً والسعيد شقياً

(٢) التعرف (Réconnaissance) في اصطلاح المسرح هو اللحظة التي يعرف فيها شخص من أشخاص الرواية لنفسه أو لغيره. فقد يحدث أحياناً أن يجهل الشخص حقيقة أمره أو حقيقة غيره حتى تتهيأ الظروف. فيعلم المجهول ويكشف المستور فيكون له ضجة ودهشة

للنوعين جميعاً هي أن تستمر سلسلة الحوادث متصلة ، وألا يكون تسلسلها تعاقبيا ، بل يتوالد بعضها من بعض على غير ما يترقب المشاهد حتى تنتهي الى الحل . والحق أن ارسطاليس لم يكن محتاجا الى غير هذا ما دام كل ما يبغيه هو حادثاً يبعث في القلوب الرعب والرحمة . فهو لا يشغل باله إلا بالحل ، أما التأثير الداخلي للموضوع فذلك مالا يحفل به كثيراً . فأنت ترى أن المسرح الأغريقي كان يعتبر الموضوع الذي يتمخض عن الفاجعة الأليمة المحزنة بسيطاً . وما كانت تلك البساطة في الواقع الا فراغا في عمل عقيم بطبعه ، وكيف يكون في مثل هذا الموضوع الساذج محل لتناقض الأخلاق وتصادم الأهواء ، وأسباب حوادثه خارجة عن إرادة الأشخاص أو سابقة للعمل الروائي نفسه ؟ ففي رواية أوديب الملك ماذا ترى ؟ ترى كل شيء قد وقع قبل ابتداء العمل . (فلبّوس) قد قتل ، وأوديب قد تزوج من (يوكاست) ، فلم يبق إذن بين البطل وبين الشقاء الا أن يعلم أنه زان بأمه قاتل لأبيه ، فرويداً تنكشف الحجب وتنجلي الحوادث ، ويستيقن أوديب أنه نفذ إرادة الآلهة فيعاقب نفسه . تلك هي رائعة الأدب الأغريقي وكل ما فيها انكشف عن جريمتين وقعتا قبل عملها ، فكان ذلك الكشف الرهيب الأليم كافياً لشغل المسرح وملئه . فكيف استطاع الأغريق إذن أن يشغلوا خمسة فصول بحادث محتوم لا حيلة للأشخاص فيه ولا منجى لهم منه ؟ كانوا يمثلون على التتابع مآسي كثيرة في يوم واحد ، وكان الخورس يقتل جزءاً من الزمن ، وما بقي من الفراغ كانوا يملأونه بالشكاوى والوعظ والوصف والانشاد والمجادلات في الفلسفة والسياسة

تلك حال التعقيد الروائي في الفن الأغريقي ، وهو كما ترى ضئيل الخطر قليل الأثر ، لايقوى الجاذبية ولا يزيد التشويق ، وإنما كان سبيلهم الى ذلك هو التعرف وحده ، وكان شعراؤهم يؤثرونه ويرونه أنجع الوسائل لأيقاظ المسرح وإحياء الرواية . ولولاه لما كان لمعظم روائعهم الفنية شأن يذكر كأوديب وإيفجيني وفيلوكتيت

أما التعقيد في الفن الحديث فهو جسم الرواية وروح العمل ، وكان سبب ما أحله تلك المكانة هو امتداد نواحيه ، وتشعب أطرافه ، وحرية وجهه ، فقد تخلص من ربقة القضاء والقدر والكهانة ، وأصبح مظهراً للعواطف المؤثرة المنتجة ، وصدى لأصوات الحياة الصاخبة المزعجة ، وصورة للبيئة الحاضرة المعقدة ؛ وصارت جاذبية المسرح معقودة بما يحدثه اصطدام الأهواء واضطرام النفوس وتباين الأخلاق وتعارض الأطماع من خير أو شر ، وأخذ الحب والبغض والانتقام والطمع والغيرة تحل من حياة الانسان محل الاقدار والحظوظ ، وتعقد العمل بتفاوت الشعور وتنازع النفس واختلاف الهوى وثورة العاطفة فبعث في المسرح الحديث حركة شديدة وروحا قوية كان القدماء يجهلونها كل الجهل ، لأن مسرحهم كان يقوم على حكم الضرورة ، ومسرحنا يقوم الآن على نظام الطبيعة ، والضرورة عامل قاهر ، ومتسلط مستبد ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه . أما الطبيعة فلها مبادئ وقوانين تصدر عنها وتسير عليها ، فكل حادث لعلة ، وكل غاية لأصل ، حتى في اضطراب الأهواء وفوضى الميول تجد نظاماً خفياً لا تستطيع أن تقلبه دون أن تصرخ الطبيعة في نفسك بأنك خرقت قانونها وانتهكت حماها ، لذلك كان بناء المأساة الحديثة من أدق الأمور وأشقها على الكاتب : فالحوادث تتدرج في الصعوبة بحكمة ، والجاذبية تتوزع في الأجزاء بدقة ؛ والعمل يتسلسل بعضه من بعض في حدود الطبيعة سواء أكان منتزعا من جوهر الموضوع أم من خلق الأشخاص . ولو شاء ربك أن يبعث الآن ارسطاليس فرأى كيف نسجت العقدة في أمثال بليكت وأزير للكه الدهش وأخذه العجب ، ولاعترف أن هناك فناً آخر أسمى وأبلغ من فن اوريبدس وسوفوكليس يدور العمل فيه على الأخلاق والعادات ، لا على الضرورة والخرافات.

بني الحل وهو الجزء الذي تنتهي به الرواية وتتحلل فيه العقدة بزوال الخطر أو قضاء الوطر أو تذليل العقبة أو حلول الكارثة . وبراعة الحل أن يدبر دون أن يظهر . فتدبيره يكون بوضع العمل على طريقة تجعل اللاحق ناتجاً عن السابق . فان بين الحوادث المتوالدة والحوادث المتعاقبة بوناً بعيداً كما قال ارسطاليس ، وبذلك يكون الحل طبيعياً منطقياً متفقاً مع أخلاق الأشخاص وأعمالهم ؛ وعدم ظهوره هو أن يكون فجائياً ولا سيما اذا كان ساراً ، لأن

الجاذبية إنما تقوى بتعاقب الرجاء والخوف على قلب الشاهد ، ولا مصدر لهذا التعاقب الا الشك ، فاذا علم من قبل أن الحل سيكون ساراً ، نفى سبب الرجاء والخوف ، وسكن بانتفائه محرك الجاذبية . حتى فى الموضوعات المعروفة يجب أن يخفى الحل . وخفاؤه انما يرجع الى براعة الكاتب فى سوقه العمل على وجه ينسى الشاهد ما يعلمه من قبل . وتلك هى قوة الوهم وعبقرية الفن ، ولولاها لما رأينا ذوى الحساسة من الشاهدين يبكون للمأساة الواحدة عشرين مرة .

إن معنى فجائية الحل هو انتقاله طفرة من حالة مبهمة الى حالة واضحة . وتقريب ذلك أن حظ الأشخاص فى سياق العمل أشبه بسفينة تناوشتها الأمواج واصطلحت عليها العواصف — وتلك هى العقدة — فاما أن تغرق وإما أن تبلغ الساحل — وذلك هو الحل —

ثم إن الحل قد ينتهى إما بالتعرف اذا تعقد العمل على أساس الجهل والتناكر ، ثم تحلل بجلاء الموقف وتعارف الأشخاص ؛ وإما بالانقلاب اذا حدث تغيير فجائى فقلب حال البطل من نعيم الى بؤس أو من بؤس الى نعيم ، وفى الحالة الأولى يسمى الحل محزناً [1] وفى الحالة الأخرى يسمى ساراً . وكان ارسطاطاليس يفضل الحل المحزن ويقول بابعاد الفضيلة المطلقة والرذيلة المطلقة من المسرح ، ليكون لأشخاص الرواية نصيب من كلتيهما بارتكابهم جرائم عن غير عمد فيعاقبون عليها جميعاً فى النهاية . أما سقراط وأفلاطون فرأيهما على خلاف رأيه : يريان أن المأساة لا بد أن تتفق مع القوانين فتقف البرىء على المسرح إزاء المجرم ثم تحكم للأول على الثانى . وعلى الجملة فالحل عند القدماء كان يعوزه اجتماع التأثير والمغزى وهما قوامه وكماله ، لأن الحوادث التى تؤدى الى الحل كانت خارجة عن إرادة البطل صادرة عن سواه ، والشقى اذا أشقته أخطاء غيره لا يكون مثلاً ، واذا أشقته أخطاء نفسه لا يستحق عطفاً . أما الحل فى الفن الحديث فمن السهل اجتماع هاتين الخلتين فيه ، لأن الرجل اذا أضله الهوى وأعماه التى فتردى فى هوة الشقاء وهو طيب القلب نبيل النفس ، كان مثلاً قوى التأثير شديد الروعة جليل المغزى ، يشعر قلبك الخوف دون أن يفزعك بالبلاء ، ويثير فى نفسك الرحمة دون أن يثيرك على القضاء . وليس الكاتب فى حاجة الى أن يغمس يد أشخاصه فى الجرائم ليهز النفوس ويبكى العيون ، فانه يجد لهم فى صميم أفئدتهم العدو الكاشح ، والطاغية المستبد ، والسياف القاسى ، وإذن يكون عذابهم ومصابهم من طريق الهوى المضل أبلغ مثلاً وأقوى أثراً وأفظع صورة . وفى ذلك يتجلى فضل الطريقة الحديثة على القديمة فى الحل المحزن . أما فضلها عليها فى الحل السار فهو أظهر وأكبر ، لأن هوى النفس مقروناً بسلامة القلب لا يقابل على المسرح بما تقابل به الدناءة الغريزية والشر الصادر عن روية من الزراية والمقت . وإذن يستطيع الكاتب أن يجد للبطل الذى أضله هواه مخرجاً من شقوته ومخلصاً من ورطته ، وهو جازم بوقوع هذا الحل السار من نفوس الشاهدين موقع الرضا والمسرة ، لأنهم طالما ابتأسوا لبؤسه ، وشقيت نفوسهم لشقاء نفسه .

ويجمل بنا قبل أن نفرغ من الحل أن ننبه الكتاب الى عيب أصلى من عيوبه وهو الطول

ومنشأ ذلك العيب سوء توزيع العمل على خمسة فصول ، فيجعلون الفصل الأول للعرض ، والثلاثة التالية للتعقيد ، والخامس للحل . وطبيعة ذلك التقسيم تقضى بأن يبلغ الخطر أقصى درجته ومنتهى قوته فى الفصل الرابع . فاذا جاء الفصل الخامس وجد الكاتب نفسه مضطراً أن يحل العقدة ببطء وتدرج ليملأه ، فيطول بذلك الحل ويفتر ، والجاذبية اذا انتهت فى الزيادة بدأت فى النقص ، أو هى كالنار تتغذى بالوقود فاذا ماسكت عنها انطفأت . فينبغى الأسراع فيه على شرط ألا تضر السرعة بالأمكانية ، ولا الأمكانية بالشك . أما حل الملهاة فهو بحكم العادة كشف خديعة وإزالة غرور وفضيحة خبث وقطيعة سخرية . ويغلب أن يكون الحب محور التعقيد الهزلى فينحل بالزواج . وهو يشارك حل المأساة فى ترتبه على ما قبله وانتزاعه من نفس الموضوع وتولده من تسلسل الحوادث . ويختص دونه بعدم المفاجأة ، فقد يزداد هزله كلما وضح أمره . وفى المأساة يخدع الشاهدون ، أما فى الملهاة فيخدع الأشخاص .

يتبع (الزيات)

---

(١) فى المسرح الأوربى يطلقون على الحل السار كلمة Pérépitie بيريبسى ومعناها الحل المنقلب ، وعلى الحل المحزن كلمة كتستروف Catastrophe ومعناها هنا : القاضية أو الحل الحاسم . واذا حدث التغير بسرعة ومفاجأة سمى : بالضربة المسرحية Coup de Theatre

من الشعر المنثور

موعظـــة الحكيم

للأستاذ خليل هنداوى

وسمعته وقد جمع إليه تلاميذه فى الساحة يودعهم ويشجعهم ، وقد لمعت بوارق الأمل فى وجوههم ، وكأنما كل واحد منهم رسم على صفحة وجهه ما يُوارى له الغد .

قال لهم : يا أبنائى ، إنكم داخلون فى أقطار تعرفونها وتجهلونها ، وحاملون أنهم ما يعرفونه ويجهلونه ، فابذلوا تعاليمكم فى سبيل الحياة ، لأن من يعمل للحياة تضمه الحياة إلى صدرها .

لا تكونوا كأولئك الحكماء الدجالين الذين يسخرون من جهل الناس وما عرف جهلهم إلا أنفسهم ، يقولون للناس : هلموا الينا ، إننا أتيناكم بالحياة ، وما يحملون إلا الموت . لتعط ألسنتكم من خزائن قلوبكم ، وليخرس اللسان اذا أراد القلب ألاَّ ينطق .

الكلمات المنثورة — من غير صدق اعتقاد — تمضى كما تمضى الأصداء ، وتنقش فى الصدور ، كما تنقش على الرمال السطور !

أريد أن أسمع كلماتكم فى عزلتى ، وأريد أن ترسخ على وجوه الجبال وصفحات البحار . ولن تقدروا على تخليدها إلا إذا اعتقدتم بخلودها .

اذهبوا كما تذهب السواقى من البحر مبشرة بنعمة البحر . لا تمدحوا عذوبتها قبل أن تذكروا ملوحته . البحر يوزع الحياة على الأرض ، ويُعطى بلا نفاد ، لأن لذة حياته لم يقفها على الأخذ دون العطاء .

تذهب السافية من البحر لتعود الى البحر نقيةً طاهرةً لامعة تؤوب كما ذهبت . لأن الأرض لا تقابل يد الطاهر إلا بجسدها الطاهر ، ولا تقابل الرجس إلا بالطهر .

اذهبوا أنتم وعودوا إلىَّ أنقياء طاهرين كما تذهبون طاهرين ، أما الطاهرُ فلن يعود إلا طاهراً كالسافية النقية تذهب حبلى بأسرار البحر ، وتعود حبلى بأسرار الأرض ! وأما الدنس فانه لن يعود الىَّ كالسافية التى خبثت نفسها فعرجت على بطون الرمال تتهادى فيها ولا تنفع الحقول . فهى الى موت لا حياة بعده ، وهى فى موطن لا ترتقب فيه سافية ثانية تحملها الى مستقرها .

كونوا كالسافية الأولى ، تذهب مرنمة على أجنحة الغيوم ، وتعود كرَّارة ثرثارة بين تعاريج الجبال والوديان .

الماء لا يحيا إلا اذا كان يغني ، واذا سكن هديره فهو آسن قد فقد الحياة .

الماء يغنى فى صدر البحر والجداول والأنهار ، ولا يسكت إلا فى الغدران الراكدة ، وأية حياة فى هذه الغدران ؟ غنوا اذاً ، وليكن غناؤكم فى سبيل الحياة كما يغني كل حى من أجلها . وعلموا الناس أن يبتسموا لأن غاية الحياة هى أسمى من أن توجدنا لنشقى ونتألم ، ومتى علمتموهم أغنية الرجاء هان عليكم تعليمهم غيرها من الأغانى :

ما أكفرك أيها الأنسان !

كل شىء يضحك للحياة إلا أنت ؟

« بيروت » خليل هنداوى

١٣ ـ أعيان القرن الرابع عشر

أحمد باشا تيمور

بقلم حسن عبد الوهاب

والده المرحوم اسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور بن اسماعيل، تقلب فى الوظائف الكبيرة إلى أن كان رئيساً للديوان الخديوى فى عهد المغفور له اسماعيل باشا

جده محمد كاشف تيمور كان ضابطاً فى جيش محمد على وساعده على إبادة دولة المماليك وترقى حتى كان والياً على الحجاز وتوفى سنة ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م)

مولده

ولد فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وقد تلقى دروسه الأولية على مدرسين خصوصيين، ثم تلقى اللغة العربية على المرحوم العلامة الشيخ رضوان محمد العالم الشهير فى علمى القراءات والرسم

ودرس اللغة الفرنسية بمدرسة كلير وعلى الأستاذ عبيد بك حتى نبغ فيها مع نبوغه فى اللغتين التركية والفارسية

وتلقى علم المنطق وعلوماً أخرى على الأستاذ الكبير الشيخ حسن الطويل، ثم تلقى علم اللغة على اللغوى الثقة الشنقيطى الكبير، فحضر عليه شرح المعلقات وغيره، فكان يذهب إليه الفقيد فى منزله ويتلقى الدرس عليه وهو جالس، فكان حينما يشعر بألم ويبدل رجلاً بأخرى يقول له لا تتألم يا أحمد فقد كنا نقطع بالراحلة شهوراً وراء البحث والاستقصاء عن مسألة علمية

وظل مثابراً على الدرس ومجالسة العلماء والأخذ عنهم حتى أصبح الحجة فى اللغة بعد الشنقيطى فى عصره والوحيد بعده

ناديه بسراى درب سعادة

يرى السائر الآن فى شارع درب سعادة بجوار مسجد آسنبغا فضاء كبيراً هو سراى تيمور، وقد كانت منتدى يؤمه شيوخ الأدب واللغة فى القاهرة للبحث والمناقشة فى المواد العلمية والأدبية، أمثال المرحومين الشيخ أحمد مفتاح والعلامة الشيخ طاهر الجزائرى الحجة الثقة فى المؤلفات العربية، والمرحوم الشيخ محمد عبده، ويحيى افندى الأفغانى وأصدقاؤه الأجلاء السيد رافع والسيد محمد الببلاوى والشيخ حسن منصور والشيخ محمد شاكر أطال الله بقاءهم، وغيرهم كثيرون ممن يضيق المقام عن سرد أسمائهم، وقصارى القول أن تلك الدار كانت كعبة العلماء والأدباء فى مصر والأقطار العربية، وما كتبه فى الصحف والمجلات من مباحث علمية وتنقيب عن حضارة العرب بأسلوب شيق وتمحيص للحقائق أكبر دليل على ما له من أدب ونظر سديد فيما يعانيه من الأبحاث.

وقد جمع خزانة كتب هى مفخرة مصر بل والشرق.

الخزانة التيمورية

بدأ فى تكوين خزانته سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وقد كان لديه نواة صغيرة لها من جمعه أيضاً، وظل طوال تلك السنين ينقب عن النوادر من المخطوطات القيمة ويشتريها بأغلى الأثمان حتى اجتمعت لديه نوادر يندر وجود مثلها فى خزائن أخرى، بل انفردت بتحف كثيرة

ويبلغ عدد كتبها ١٥٠٠٠ كتاب فى نحو ٢٠٠٠٠ مجلد غالبها خط، جميعها مجلدة تجليداً متقناً، واستنسخ فى عهده الأخير مجموعة صالحة من مكاتب أوروبا بالفوتوغرافيا. وبها القليل من المؤلفات الفرنسية والانجليزية مما له علاقة بحضارة العرب أو تاريخ مصر ونشرات المجمع العلمى الفرنسى

وتمتاز هذه المكتبة بوفرة كتبها الخطية وخاصة فى التاريخ واللغة، ولعل القارىء يعجب إذا أكدت له أن هذا العدد من الكتب قد اطلع عليه رحمه الله وعلق عليه ملاحظات له ما بين وفاة مؤلف، أو بيان ذيول وضعت على الكتاب، أو الاشارة الى قوة المؤلف والاعتماد عليه فى النقل. هذا ما يتعلق بالكتب المطبوعة

أما الكتب الخطية وهى أكبر قسم فيها، فقد استنفدت منه مجهوداً لا يقدر عليه أشخاص. ومن يطلع على جميع الكتب الخطية يجدها مبتدأة بترجمة المؤلف ومنمرة، ثم فهارس بالتراجم الواردة فيه، والموضوعات المهمة، وآخر بأسماء البلدان والأماكن. وبيان الكتب الواردة فيه، ومن حبه للعلم ومساعدته على نشره لم يبخل على من أراد طبع بعض هذه الكتب بالترخيص له بطبع

فهارسه ، وهذا مشاهد فى كتاب الطالع السعيد للأدفوى المطبوع سنة ١٩١٤ فانه محلى بالفهارس التى أشرت اليها ، وكما حصل أخيراً من إعطائه مفتاح الخزانة ، وهو مجموعة الفهارس التى وضعها لكتاب الخزانة للبغدادى الى المطبعة السلفية لدرجها فى الطبعة الجديدة ، وفعلاً طبعتها ، وأمثال هذا كثير .

ومن اللطيف فى هذه المكتبة تدقيقه رحمه الله فى انتقاء كتبها ، فاذا اطلع مطلع على نسختين من كتاب فلا بد وأن يكون هناك فرق بينهما ، كأن تكون هذه كتبت فى عصر المؤلف أو قرئت عليه ، والأخرى طبعت بمصر أو أوربا أو الهند .

أما المجاميع الخطية فقد وضع لها فهارس بمشتملاتها ، وكل هذا المجهود بخطه .

وكثيراً ما أعار المكاتب والمستشرقين أو استنسخ لهم لحسابه هدية منه ، كما أنه أعار دار الكتب الملكية بعض نفائس خزانته لتصوير نسخ منها مثل الأجزاء التى كانت تنقصها من كتاب عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى ، وما لديه منه بخط المؤلف . وأخيراً أعارها الجزأين الأول والسابع من كتاب الضوء اللامع للسخاوى ، وتاريخ ابن الفرات الذى استنسخه من فينا بالفوتوغرافيا ، وسمح للدار بتصوير الفهارس التى وضعها لكل جزء فى أوله ، وعدد أجزائه سبعة عشر جزءاً .

أما النفائس التى امتازت بها المكتبة فكثيرة ولا تسعها تلك العجالة ، ومن مميزات تلك المكتبة النادرة وجود تواقيع مئات من أكابر العلماء فى القرن السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر الهجرى ، وقد حصرها جميعها ، وبعد وفاته رحمه الله أهديت مكتبته الى دار الكتب المصرية ، فأفردت لها مكاناً خاصاً بها .

مقالاته ومؤلفاته

كان رحمه الله دقيقاً فى البحث والتمحيص ، وقد نشر مقالات كثيرة فى المؤيد والضياء والمقتطف والمقطم والاهرام والهلال والهندسة والزهراء والهداية الاسلامية ، وكلها فى حضارة العرب وتحقيقات تاريخية

فمن مقالاته المتمة « الخلافة والسلطنة » نشرت فى المقطم سنة ١٩٢٢ ومنها «المهندسون الاسلاميون» نشرت تباعا فى السنة الثانية ١٩٢٢ والثالثة ١٩٢٣ من مجلة الهندسة ، وأيضاً خص تلك المجلة بفصول قيمة من كتابه « التصوير عند العرب » نشر منها « التصوير على الجدران » فى العدد الأول والعدد الثانى من السنة الثامنة يناير وفبراير سنة ١٩٢٨ « التماثيل المتحركة والمصوتة » فى العددين ٣ و٤ مارس وأبريل سنة ١٩٢٨ — وسبق أن نشر بمجلة الهلال الغراء مقالات عن التصوير عند العرب .

وقد انفردت مجلة الزهراء بنشر قسم كبير من مقالاته نذكر منها : بئر الثنيتين — حول تصحيح القاموس — شعر يزيد — دار ابن لقمان بالمنصورة — انتشار المذاهب الأربعة — الكرات العربية الأرضية والفلكية — الكتابات الدقيقة ، غرائب أخرى فى الكتابة — لقب الطواشى — الطربوش وتاريخه — وصف ساعة المدرسة المستنصرية — المشتهى وتحقيق موضعه بالروضة

ومن مقالاته التى كان يوافينا بها أخيراً (الآثار النبوية) خص بها مجلة الهداية الاسلامية ونشر منها تسع مقالات فى الأعداد محرم ، وربيع الثانى ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذى القعدة سنة ١٣٤٨ وظهر المقال العاشر فى عدد الحجة بعد وفاته رحمه الله ، تكلم فيه عن الآثار النبوية فى الأقطار الاسلامية باسهاب لم يسبق ، وتحقيق وتمحيص نادر ، وباقى هذا البحث معد للنشر أيضاً .

وكلها مباحث تدل على سعة الاطلاع والتعمق فى البحث ، بل هى خلاصة معلوماته وعصارة أفكاره ، وآثار تنقيبه فى خلال السنين الماضية .

والحق أنها رسائل فريدة وليست بمقالات ، وذلك لغزارة مادتها ودقة مباحثها التى لم تطرق من قبل .

مؤلفاته

هذه المؤلفات قسمان : ما نشر وما لم ينشر . أما ما نشر فهو

١ — تصحيح لسان العرب نشر القسم الأول منه سنة ١٣٣٤ هـ

٢ — القسم الثانى من تصحيح لسان العرب نشر سنة ١٣٤٣ هـ

٣ — تصحيح القاموس طبع سنة ١٣٤٣ هـ

٤ — نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها طبعت سنة ١٣٤٤

٥ — قبر الامام السيوطى وتحقيق موضعه مزين بالصور طبع سنة ١٣٤٦

٦ — اليزيدية ومنشأ نحلتهم طبع سنة ١٣٤٧

٧ — تاريخ العلم العثمانى مزين بالصور . طبع سنة ١٣٤٧

أما مؤلفاته التى لم تطبع فهى

١ — الأمثال العامية : وقد رأيتها بعينى تملأ مجلدات كبيرة وكلها معدة للطبع صرف فى جمعها زهرة شبابه ، حتى أنه رغم جمعها بنفسه أعد جوائز لمن يأتيه بمثل لم يدونه

٢ — التصوير عند العرب : اطلعت على قسم كبير منه وجميعه معد للنشر ، ومن يطلع على ما نشر منه فى مجلة الهندسة يعلم مقدار حاجتنا الى مثل هذا المؤلف بعد أن رأينا ما ظهر من مؤلفات الغرب فى هذا الباب وجلها اقتصر على ما عثر عليه من التصوير الفارسي وكلها لا تسمن ولا تغني من جوع بجانب هذا السفر القيم العديم المثال

٣ — معجم تيمور فى العامية المصرية : وهو بمثابة إصلاح للأخطاء الدخيلة على اللغة العربية فيذكر الكلمة وأصلها الصحيح ، وبيان التحريف الذى طرأ عليها ومنشأه . وقد اطلعت على قسم كبير منه فاذا هو مجهود مضن لا يستطيع المضى فيه إلا من أوتى بسطة فى العلم مثل تيمور رحمه الله ، وقد نشر منه قطعاً فى مجلة المجمع العلمى بدمشق ، ونقلت البلاغ الغراء قطعتين منه فى العددين المؤرخين ٢٥و٢٦ مايو سنة ١٩٣٦

٤ — السفن الاسلامية وأسماؤها

٥ — شرح التبرّى من معرّة المعرّى

وهو كتاب لطيف جمع فيه أسماء الكلب بمناسبة ما قرأه فى ترجمة الامام أبى العلاء المعرى من أنه دخل على أبى القاسم المرتضى فعثر برجل فقال من هذا الكلب فقال له أبو العلاء الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

٦ — ولديه أيضاً مجموعة كبيرة من الوفيات منذ العصر الذى يلى العلامة الجبرتى الى عصرنا هذا ، ويكاد يكون منفرداً بها أيضاً .

هذا قليل من كثير ، ولديه أشياء لم يطلع عليها أحد ومقالات لم أشر إليها فى مجالتى هذه

أعماله ومآثره

كان عضواً فى مجلس الشيوخ منذ تكوينه حتى أوائل دورة العام الذى توفى فيه واستقال لانحراف صحته

وكان عضواً بلجنة حفظ الآثار العربيـة . والمجمع العلمى العربى بدمشق . والمجلس الأعلى لدار الكتب الملكية ، ومن مؤسسى جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ، ومن مؤسسى جمعية نشر الكتب العلمية ، وفى سنة ١٩٢٤ أهدى إلى المجمع العلمى بدمشق مجموعة من الموازين (الصنج) الزجاجية مع قسم كبير من الكتب

وأهدى إلى دار الآثار العربية خنجراً مرصعاً بالأحجار الكريمة وسيفاً كان لجده تيمور كاشف وأهدى إلى جمعية الشبان المسلمين كتباً قيمة وأيضاً منح جمعية الهداية الاسلامية فى شهر ابريل سنة ١٩٣٠ ١٢٠ كتاباً

ولو لم يكن من مآثره إلا مكتبته النادرة لكفى .

أخلاقه

كان رحمه الله مثلاً عالياً فى الأخلاق . حلو المعاشرة هادئاً حليماً ، على دين متين ولهجة صادقة ، وسمت حسن ، وعقل وافر ووقار ، محباً للخير لا يصل إلى الشر مطلقاً

وقد كان محسناً متواضعاً لا يحب الظهور ولا المباهاة ، وانظر إلى تواضعه الملموس فى مقدمة كتابه تصحيح لسان العرب وهو أكبر كتاب فى اللغة حيث يقول :

« ولسنا فى ذلك بمدعين عصمة أو متبجحين بفضل »

وما أجمل تواضعه حينما يصف لنا مقالاته « التصوير على الجدران » و « التماثيل المتحركة » بأنهما من رسالة التصوير عند العرب ، يمين الله أن المقال الواحد منهما حرى بأن يكون رسالة وافية فما بالك بكتاب ضخم يصفه لنا برسالة

وكان مثلاً عالياً فى التقوى والغيرة على الاسلام والمحافظة على العوائد القومية

خاتمة

لقد كانت حياته حافلة بجلائل الأعمال قضى معظمها فى البحث والتنقيب والذود عن الاسلام ، وجمع نفائس الكتب ، حتى

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

فى المعلقات أيضـــا

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

... وكنت عازماً على العودة اليها بتكملة رأيى فيها ، وأقول رأيى وإن حاول بعضهم أن يجعله رأى عالم أوربى سبقنى اليه فلا يكون لى جديد فيه ، وقد اشتغلت بالكتابة فى العلم والدين والأدب والتاريخ من نحو خمس عشرة سنة ، ولى فى ذلك بفضل الله آراء كثيرة جديدة خالصة جِدّتُها لى ، ولم يحاول أحد فى رأى منها ماحوول فى رأيى الجديد فى المعلقات ، اللهم إلا ما كان من الأستاذ الجليل أنطون الجميل فيما كان بينى وبين الأستاذ زكى مبارك فى نقد تسمية العصر الأدبى قبل الاسلام باسم العصر الجاهلى ، لأنها تسمية دينية لا أدبية ، وكان بيننا فى ذلك جدال فيمن هو صاحب ذلك الرأى منى ومنه ، فذكر الأستاذ الجميل أن هذا الرأى ليس لى ولا له وفلاناً مسبوق به ، فأما أنا فذهبت إليه فلم أجد عنده فى ذلك شيئاً فاكتفيت بذلك منه ، وأما الأستاذ زكى فانه سكت على ذلك ، وهو من عادته ألا يسكت عن شيء ، وألا يرضى

نكب بوفاة نجله المرحوم محمد بك تيمور فى أوائل سنة ١٩٢١ فكانت صدمة قوية لم يقو على كفاحها ، فأثرت فى صحته ، ومن ذلك الحين أصبح يميل إلى العزلة

ومع أن مصيبته بفقد نجله هذا من أكبر المصائب فانها لم تثنه عن المثابرة على الكتابة والبحث ، غير أن نوبات المرض كانت تنتابه بين آونة وأخرى ، وخاصة فى أعوامه الأخيرة وهو لم يرحم نفسه ولم يشفق عليها

وفاته

فى الساعة الرابعة من صبيحة يوم السبت ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٨ — ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٠ انتقل إلى رحمة الله تعالى. فانطوى ذلك العلم الخفاق ، واندك ذلك الركن الركين ، وكان لنعيه رنة حزن وأسف جزعت لها القلوب وفاضت بالبكاء العيون إنا لله وإنا إليه راجعون . ودفن وقت الغروب بمقبرة عائلته المجاورة لقبر سيدنا الامام الشافعى ، رحمه الله وطيب ثرى تربته .

حسن عبد الوهاب

بالهزيمة وهو منهزم ، ولعله رضى من ذلك بما رضيت به إحدى المرأتين اللتين تنازعتا فى ولد عند سليمان عليه السلام .

وكذلك هذا الرأى الذى أذهب اليه فى المعلقات ليس هو رأى الأستاذ نولدكه ، ولا رأى الأستاذ كليمان هيار ، وإنما هو توجيه جديد لتسمية هذه القصائد باسم المعلقات أصح من توجيههما لها ، فانى أرى أن المعلقات اسم مفعول مشتق من التعليق بمعنى الحفظ أو الشرح أو الحب و التتبع كما قال الشاعر :

علقتهـا عرضاً وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

وكما يقولون فلان علق علم أى يحبه ويتبعه ، وعلق شر كذلك

وأما الأستاذ نولدكه فيحاول أن يحمل اسم المعلقات معنى علق ، وهو الشيء النفيس فتعنى هذه التسمية عنده أن هذه القصائد قد سمت الى درجة خاصة مجيدة ، وهى محاولة خاطئة ، لأن العلق بمعنى الشيء النفيس صفة مشبهة لا يشتق منها اسم مفعول هكذا (معلقات) ، وإنما يشتق اسم المفعول من المصادر وما فى معناها ، ولم يقل أحد إن اسم المعلق يطلق على الشيء النفيس ، وإنما الذى يطلق عليه إسم العلق فقط فأخذ أحدهما من الآخر خبط وخلط

وأما الأستاذ كليمان هيار فيرى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود أو القلائد وهو أيضاً توجيه خاطىء لأن كلمة معلقة تطلق على التميمة وعلى المرأة المعلقة وهى التى ليست بذات زوج ولا مطلقة وعلى غير ذلك من أمور كثيرة وهى أشهر فى المرأة المعلقة [1] من التميمة والقلادة وغيرهما من كل ما يعلق ولو كانوا يريدون هذا المعنى فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات لسموها باسم القلائد كما سموها باسم السموط حتى يكون هذا الاسم نصاً فى ذلك المعنى ولا يحتمل معنى التميمة أو غيرها مما يصح أن يطلق عليه اسم المعلقات . وقد جاء فى الأساس أنه يقال أعلقت المصحف جعلت له علاقة يعلق بها واشتقاق اسم المعلقات لهذه القصائد من نحو هذا أجدر من اشتقاقها من المعلقة بمعنى القلادة . وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ما يقرب من هذا فى سبب تسمية تلك القصائد باسم المعلقات فقال إن العرب لم تكن تكتب فى دفاف ولم تكتب قبل القرآن

(١) قال تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة)

كتاباً مدففاً ، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أوعث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، وذلك تأويل قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طى الكتاب وتعليقه

فهذا هو رأيى فى المعلقات مع رأيى الأستاذين نولدكه وكليمان هيار وهذه ميزته عليهما ولا أقول الفرق بينهما ، لأنه من الوضوح بحيث كان يغنى ذلك الناقد عن نقده ، ويغنيني عن هذا الرد عليه إلى ما هو أنفع عندى منه . ولا أثقل على نفسى من أن يقول ناقد رأيى إننى أغفلت مناقشة ونقض رأى القائلين بأن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها كانت تكتب بالذهب وتعلق بأستار الكعبة فيلجئنى إلى أن أعيد له ماذكرته فى نقض هذا الرأى عن أبى جعفر النحاس من أنه لايعرفه أحد من الرواة ، فكيف أكون مع هذا قد أغفلت مناقشته ونقضه

ولا أثقل على نفسى من أن يذكر ناقد رأيى أن أبا جعفر النحاس أطلق الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزانته إطلاقاً وأنى أنا الذى حملته على النعمان بن المنذر ليتأتى لى نقض رأى أبى جعفر فيلجئنى إلى أن أعيد له ما قلت من أن أبا جعفر لم يذكر من هو هذا الملك الذى كان يأمر بتعليق هذه القصائد فى خزائنه وأن بعض علماء الأدب هو الذى رجح أنه النعمان بن المنذر ، فلم أكن أنا الذى حملته عليه ليتأتى لى بذلك نقض رأيه ، ثم إنى لم أكتف بهذا فى نقض رأيه بل ذكرت ما ينقضه ، ولو كان ذلك الملك ملكاً آخر قبل النعمان بن المنذر وأشرت إلى الأسباب المعروفة التى قيلت المعلقات من أجلها وإلى الأمكنة التى قيلت فيها وهى أمكنة غير تلك الأسواق التى يقول أبو جعفر وغيره إنها كانت تقال فيها

ولا أثقل على نفسى من ألا يطلع ناقد رأيى على النص الذى أخذت منه أن سوق عكاظ أنشىء بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . ثم يطلع على نصوص أخرى قد تخالف ذلك فيمضى فيها الى أن يعود فيسألني عن النص الذى اعتمدت عليه فى أمر قيام تلك السوق بعد عام الفيل ، فيلجئنى الى أن أدله فى ذلك على كتاب متداول مشهور هو كتاب « الوسيط » للأستاذين الفاضلين الشيخ أحمد الاسكندرى ، والشيخ مصطفى عنانى ، وانى أذكر لناقد رأيى نصاً أقدم مما ذكره من النصوص التى ذكرها فى إثبات قدم سوق عكاظ

قالوا فى تفسير المثل المشهور (الحديث ذو شجون) إنه يضرب فى الحديث يتذكر به غيره ، أى ذو طرق يتصل بعضها ببعض ويؤدى بعضها الى بعض ، والواحد شجن قاله ضبة بن أد ابن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقد نفرت إبل له فطلبها ابناه « سعد وسعيد » فوجدها سعد فردها ، ومضى سعيد فلقيه الحارث بن كعب فأخذ منه برديه وقتله واختفى خبره على أبيه إلى أن وافى عكاظ فرأى بردى سعيد على الحارث فسأله عنهما فأخبره بأنه رآهما على غلام فطلبهما منه فأبى فقتله بسيفه ، فقال له ضبة : أعطينيه أنظر اليه فانى أظنه صارما ، فأعطاه له فهزه فى يده وقال : (الحديث ذو شجون) ، ثم قتله به ، فقيل له ياضبة : أفى الشهر الحرام ؟ ! فقال : (سبق السيف العذل) فذهب أيضاً مثلاً .

ولاشك أن عصر ضبة أقدم بكثير من عصر عبد شمس بن عبد مناف ، ولكنها نصوص قد تحمل على الاشتباه وأن ذاكرها يريد سوقا أخرى غير سوق عكاظ فاشتبهت عليه لشهرتها ، وهكذا يغطى كل مشهور على كل شىء سواه ، فيبقى النص الذى يعين قيام سوق عكاظ بعد عام الفيل غير قابل للتأويل ويقدم على غيره من النصوص الأخرى لأنه نص سيق لبيان تاريخ بدء هذه السوق ونهايتها ، وتلك نصوص فى حكايات أخرى ذكرت هذه السوق عرضاً فيها ، فيمكن حملها على الاشتباه كما ذكرنا .

وإذا أراد ناقد رأيى بحثاً فى وثاقة رواية هذه القصائد وأمثالها فيمكنه أن يجد ذلك فى بحث صحة أشعار امرىء القيس من كتابنا (زعامة الشعر الجاهلى) فلعله يقتنع بأنا قد نحسن هذا النوع من البحث ، وأرانى بعد هذا قد أطلت ، ومنعنى الأستاذ الحاجرى من العود فى هذا المقال الى تكملة رأيى فى المعلقات فليكفه هذا منى وليتركني فى سبيلي وجزاه الله خيراً ؟

عبد المتعال الصعيدى

من طرائف الشعر

على الشاطئ

للأستاذ محمود خيرت

انظر الشاطئ البهىّ الرّواء ضاحكاً كالخميلة الغنّاء
كل غصنٍ به تمثّلَ قَـدًّا أنبتتْ وردَه خدودُ الظباء
فاتناتٍ وقد خطرْن سكارى برحيقٍ من الرّضى والصّفاء
سافراتٍ وكيف يحتبس الحُسْـــنُ وقد كان من فيوض السّماء
عارياتٍ كأنما قد تستّرْ نَ عليه بحُلّةٍ من رياء(١)
باسماتٍ والابتسامةُ تحيى فى قرار النفوس ميْت الرّجاء
فترَى أعيُنَ الشّباب عليهـــنّ خِفافاً من كل قاصٍ ونَاءِ
وتراهنّ آمناتٍ بمنأى عَنْ تجَنٍ أو نفرةٍ أو جفاء
قد تأكّدْنَ أنّها نظراتٌ أرسلَتْها العيون بالإطراء
والغوانى يهزّهنّ كما قد قال شوقى العظيم سِحرُ الثناء(٢)

* * *

وانظر البحر هل ترى لمداهُ آخِراً . رائعاً كرحب الفضاء
وهو حىٌّ له نصيبٌ منَ الحِسـ(م)س وحالاتُ فِتنةٍ والتواء
فاذا مسّهُ النّسيم عليـــلاً كان مثـل الصحيفة الزّرقاء
وتراهُ كأنّما الرّعدُ يدوى حول أمواجه من الأنواء
قام يُزجى مياهَه صاعداتٍ نحو أقدامهنّ فى إغراء
فتواثبْنَ كالعرائس(٣) لـكنْ كُنّ فيـه عرائساً من ضياء
وتناثرْن كالدُّمى سابحاتٍ فى انحرافٍ عن سطحه واستواء
هادياتٍ لقاعِـــه غائصاتٍ ثم يظهرْن عند سطح الماء
ثم يأخُذْن فى التّراشُق بالما ء رشاشاً وهنّ فى ضوضاء
هكذا ينعمُ الملاح على الشّا طئْ حتى يرفّ ظلّ المساء

« الاسكندرية »

محمود خيرت
بقسم قضايا المالية

(١) (ثوب الرياء يشف عما تحته) (٢) (والغوانى يغرهن الثناء)
(٣) Sirènes

ليلة الاهرام .....

مَوْثِقُ الحبِّ حتى صِحْنا به شَهِدَ الأهرامُ والبدرُ عليهِ
شَقّ كلٌّ صدرَهُ عن قلبهِ ومضى يبعثُ بالعهد إليهِ

* * *

ومَضَتْ ليلةُ تروى الغرامْ وتَبُثُّ الوَجْدَ وحياً خالدا
رَفْرَفَ الأمنُ عليها والسلام وضياء البدرِ يسرى هاجـدا

* * *

آهِ من فرصةِ ثغرٍ وعِناقْ لم تُتَحْ إلاّ لِسُكّانِ الجِنانِ
اختلسناها . وقمنا فى احتراقْ نَحْقِرُ الدنيا، ونزرى بالزمانِ..!

* * *

ثغرىَ الصديانُ كم لاذَ بثغركْ يرشفُ النورَ الذى رَفّ وحَامْ
وذراعى كم هوتْ تعطفُ خصرِكْ والهوى الصادقُ فى الأعْيُنِ نامْ..!

* * *

لا تقولى ما مضى فاتَ ، فما يَطّبيني غيرُ ماضى الذكرياتْ
أنا أهواكِ جَبيناً وفَماً وضياء شاع فى كلّ الجهات

* * *

قُلْتِ لى، والبدرُ للأهرام يرنو، وأنا فى سَكْرةٍ مِمّا أرَى :
« أتُرَى أحْبَبْتَنِى أمْ أنت تحنو..
مُشْفِقاً ، أمْ ذاكَ حُلْمٌ فى الكرى ؟ »

* * *

قلتُ : « أهواكِ ولا أهوى سواكِ »
ثم لاذَ الثغــرُ ظمآناً بِثغركْ
وطعِمْتُ الحبّ حلوى فى لَمَاكِ
وشربتُ الضوء من جامات سِحْركْ !

* * *

ثم قُمْنا ، وانحدرنا فى الطريقْ مِثْلَ مخمورَيْن لجّا فى الغبوقْ
ضَمّ صدرانا من الوجدِ حريقْ وثوى فى ثغرها حُلْوُ الرحيقْ !

مختار الوكيل

في الريف

للشاعر محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا   وعشقتُ فيك جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها   أنعم بشمسك مشرقاً وغروبا
ولقد نزلتك فادكرت طفولتي   وتمائمي . طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات . وليتهم   زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهي القرائح أنت مصدر وحيها   كم بت تلهم شاعراً وخطيبا
حييتُ فيك الثابتين عقائداً   والطاهرين سرائراً وقلوبا
والذاهبات الى الحقول حواسراً   يمشي العفاف أمامهن رقيبا
سلبت عذاراك الزهور جمالها   فبكت تريد جمالها المسلوبا

* * *

كست الطبيعة وجه أرضك سندساً   وحبت نسيمك إذ تضوع طيبا
بسط تظللها الغصون فأينما   يممت خلت سرادقاً منصوبا
وحنت على الماء الجذوع كأنها   أم تضم وليدها المحبوبا
وبدا النخيل غصونه فيروزج   يحملن من صافي العقيق حبوبا
أرأيت عملاقاً عليه مظلة   أو مارداً ملء القلوب مهوبا ؟
يا رب ساقية لغير صبابة   أنت وأجرت دمعها مسكوبا
وحمامة سمع الفؤاد هتافها   فحسبته بين الضلوع مجيبا
والغيد تغمس في الغدير جرارها   فيظل يضحك[1] ملء فيه طروبا
سربان من بط وبيض خرَّد   يتباريان سباحة ووثوبا
وترى الجداول في الأصيل كأنها   من فضة فيها النضار أذيبا
يابدر أنت ابن القرى وأراك في   ليل الحواضر إن طلعت غريبا

* * *

نشر السكون على القرى أعلامه   فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا
بدت الحياة هناك في ريعانها   ولو انها سارت تدب دبيبا
ولقد ينام القوم ملء العين في   زمن يقض مضاجعا وجنوبا

(١) ضحك الغدير صوت الفقاقيع الناشئ عن حلول الماء محل الهواء

وهي السعادة كم أوت كوخاً وكم   هجرت أشم من القصور رحيبا
قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها   وبدت محاسنها فكن عيوبا

* * *

ما ضر أهل الريف ألا يحفلوا   بالطب أو لا يعرفوا (الميكروبا)
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم   وصفا هواؤهمو فكان طبيبا
رضعوا رحيق[1] السائمات وما دروا   غير النمير وغيره مشروبا
وسرى شعاع الشمس في أبدانهم   فجرى بأوجههم دما مشبوبا
شمس القرى كست الوجوه نضارة   أرأيت وجها في القرى مخضوبا ؟
سر في الحقول تر الرياضة عندهم   فنا . وخطا عندنا مكتوبا

* * *

أكبرت في القروي صحة عزمه   وحسبته في صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية   ووداده سهل المنال قريبا
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى   ضحك النواجذ بالخديعة شيبا
أنا لا أقول : تشينه أميَّة   كن خيِّراً لا كاتبا وحسيبا
كم ضل من أهل الحواضر قارئ   فاغتال أعراضا وشق جيوبا
في الريف فتيان تسيل جباههم   عرقا فيصبح لؤلؤاً مثقوبا
لا فتية مرد بأيد بضة   في كل يوم يلبسون قشيبا
بذلوا لمصر فوق ما في وسعهم   ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

محمود غنيم

(١) رحيق السائمات اللبن

العلوم

البراكين

بقلم نعيم على راغب
دبلوم عال فى الجغرافيا

هى ظاهرة من أهم الظواهر التى تدل على حرارة الأرض الباطنية . وانه لمن المدهش حقاً أن نجد حتى الآن وبين مدرسى الجغرافيا من يخطئ فى تعريف هذه الظاهرة ، ولذلك سأبدأ بحثى بتعريف البركان ووصف أجزائه بالتفصيل ، ثم أختتمه ببيان الغلطات الشائعة فى تعريف البركان ووصفه :

البركان عبارة عن شق يصل باطن الأرض بظاهرها ، فهو بمثابة قصبة تخرج عن طريقها المواد المنصهرة من باطن الأرض الى سطحها اذا كان البركان ثائراً . فاذا ما همد لسبب ما وخمدت ثورته سدت القصبة إما بتجمد المواد المنصهرة فيها ، أو تجمع المواد المفتتة بها .

أجزاء البركان

يتكون البركان عادة من أقسام ثلاثة هى : —

١ — القصبة Funnel وهى واسطة الاتصال بين باطن الأرض وسطحها . تخرج منها المواد المنصهرة ومقذوفات البركان . هذه القصبة تظل مفتوحة مادام البركان مستمراً فى ثورانه حتى اذا ما سكنت ثورته أو خمدت تجمدت فيها المواد الذائبة وتراكمت فى الفتحة الصخور والأحجار فتنسد .

٢ — الحوض Crater هو تجويف يقع فى نهاية القصبة البركانية يختلف فى اتساعه تبعاً لقوة ثوران البركان . فى البراكين الصغيرة يصغر مقدار قطر الحوض كما فى بركان كوتا بكس وفزياما .

٣ — المخروط Cone وهو عبارة عن تراكم المقذوفات على جوانب الفتحة أو القصبة . والمخاريط على أنواع فهى إما لابية كمخروط بركان Mauna Lua وإما ترابية كما فى بركان Misti (الواقع على الساحل الغربى لجمهورية بيرو) أو أن يكون المخروط جامعاً بين النوعين وهذا شائع الوجود . وقد تتجمد المواد المنصهرة هنا بين الطبقات الترابية والحجرية وتكون عروقا صلبة يطلق عليها اسم السدود Dikes . أما ارتفاع المخروط البركانى فيختلف باختلاف قوة البركان وقد يبلغ ارتفاعا كبيراً : فمخروط فيزوف يبلغ ارتفاعه ٤٠٠٠ قدم واتنا ١١٠٠٠ وكوتا بكس ١٨٨٧٦

ثوران البركان

اذا ما ثار البركان جمع الشياطين معه ليقوموا سويا بعملية الهدم والتخريب فيقذف من فوهته بالحمم ويلقى فى الجو بالصخور مكوناً سيلاً من مواد منصهرة مخربة ينحدر على المدن والقرى القريبة ليدمرها . ينحدر الهاينا حقيقة ولكنه ينحدر بلا تردد .

ويسمع للبركان الهائج دمدمة تصم الآذان وينتشر مع الثوران دخان يعمى العيون ، فتذبل الأزاهير وتتحطم الأشجار ، وتعود الأماكن التى كانت كالجنان جحيما ثارت فيه الشياطين ، ويغدو الجو الذى كان عطراً بالاريج خانقاً لا يحتمله الصدر ولا مجال للتنفس فيه .

ويغلب أن يحدث الثوران البركانى بعد مقدمات تسبقه بدقائق معدودات لوحظ منها : —

ا — ارتفاع صوت كصوت الرعد يرتفع منقطعاً لكنه لا يلبث حتى يزداد شدة فتصحبه هزات أرضية شديدة تتعاقب بسرعة كبيرة .

ب — انخفاض مستوى الماء فى الآبار المجاورة وذلك ناشئ من تسرب المياه فى الشقوق الحادثة فى باطن الأرض .

ولو أنه قد يثور البركان دون إنذار سابق كما حدث فى بركان فيزوف عام ١٨٥٣ ميلادية . ويجب أن لا نظن أن البركان اذا ثار اندفعت منه المواد المنصهرة دفعة واحدة فهذا غير حقيقى لأن للمقذوفات البركانية ترتيباً يقرب من الترتيب التالى حين الثوران :

١ — يبدأ الثوران البركانى بخروج الأبخرة والغازات قاذفة معها أثناء خروجها أتربة كثيرة وفتات الصخور التى كان قد سبق أن تجمدت فى فوهة البركان . ويعلو فى الجو الى ارتفاعات عظيمة بخار الماء المتصاعد وما معه من الغازات الأخرى (بلغ ارتفاعه فى بركان كركاتو ١٧ ميلا) وعلى أثر ارتفاع الأبخرة المائية الى هذه الارتفاعات العظيمة تتكاثف وتنهمر على شكل أمطار غزيرة تمتزج بالأتربة الكثيرة فتكون أنهاراً طينية Lund Stuame

٢ — يتلو ذلك الأتربة والأحجار المفتتة التى تندفع على أثر البخار والغازات وتنشأ عن انفجار الصمامات البركانية والتصدع الناشىء فى الجوانب الداخلية للمخروط بفعل الاضطرابات البركانية وقد ميزوا بين أنواع مقذوفات الدور الثانى بالنسبة للحجم فهناك

ا — التراب البركانى Volcanic Ash وهو عبارة عن فتات رفيع يتراوح حجمه بين حبة الرمل والدقيق

ب — القنابل البركانية V. Bombs وهى عبارة عن كتل حجرية مستديرة أو بيضاوية أصلها صخر منصهر قذفها البركان وهى فى حالة السيولة فتجمدت واستدارت أثناء وجودها فى الهواء وتكون مسامية غالباً

حـ — Scoraie Cinders وهى كتل لابية الأصل تخرج من البركان جامدة .

٣ — يأتى بعد ذلك خروج المواد المنصهرة وهى ما يطلق عليها اسم اللابة من القصبة المركزية أو من الفتحات الجانبية . وهى آخر مايقذفه البركان ، وبخروجها يتعين هدوء الاضطرابات البركانيـة . وهذه تخرج فى درجة حرارة عالية ثم تبرد تدريجاً بتعرضها للجو الخارجى ، ويقتم لونها إذا ماردت كما أنها عنـدما تتجمد تصير كثيرة الثقوب .

وتختلف سرعة سير المادة اللابية باختلاف درجة سيولتها وانصهارها كذلك تبعاً لانحدار الأرض ولذلك تكون سرعتها فى المبدأ كبيرة نسبياً تقل تدريجاً كلما بعدت عن فوهة البركان .

وقد يحدث أن تحتفظ هذه الأنهار المكونة من المادة اللابية بسيولتها لمسافات طويلة فمثلا فى سنة ١٧٨٣ م ثار بركان فى جزيرة الجليد Iceland خرجت منـه مقادير عظيمة من المواد المنصهرة ملأت مجارى الأنهار والبحيرات والفتحات المجاورة لمكان البركان لمسافات كبيرة فبلغ امتدادها فى احدى هذه الجهات ٢٨ ميلاً وفى الأخرى ٥٠ ميلا وارتفاعها ١٠٠ قدم وعرضهـا ١٥ ميلا . وليتصور القارىء الكريم مجرى بعد ذلك مجرى بهذه المقاييس مكوناً من مواد منصهرة تشع حرارة وتصعد أبخرة وغازات خانقة .

ومما يدل على عظم مساحة الأراضى التى كانت تغمرها المواد اللابية المنصهرة ماهو مشاهد الآن من وجود مساحات كبيرة على الأرض ، طبيعة تكوينها لابية تكسوها مادة لابية الى أعماق كبيرة خرجت من باطن الأرض فى عصور جيولوجية حديثة . أشهرها هضبة الدكن وكولومبيا والحبشة .

ويميز عند ذكر كلمة بركان بين ستة أنواع للبراكين .

١ — البراكين الثائرة Active volcanoes . وهى دائمـة الثوران كسترامبولى ، ومتقطعة الثوران كفيزوف .

٢ — البراكين الساكنة Dormant وهى التى تهدأ لمـدة من الزمن ثم لا تلبث أن تثور فتهدم مايقوم بجانبها من مدن أو مساكن كما حدث فى فيزوف سنة ٦٩ م

٣ — البراكين المتآكلة أو ما يطلق عليها اسم Solphatara نسبة الى بركان بهذا الاسم سكن وأثرت عليـه عوامل التعرف فتآكل مخروطه ولم يبق منه إلا فتحة تخرج منها الغازات .

٤ — البراكين الهامدة أو المائية وهى ما ينعدم فيها كل أثر للثوران ولا يبقى منهـا إلا المخاريط على شكل تلول كتلك التى وجدت قرب أسوان ومثل براكين أوفيرون فى هضبة وسط فرنسا .

٥ — البراكين الطينية وهى نوع تخرج منه كميات كبيرة من المـاء مختلطة بالأتربة فيسيل الوحل على الجانبين مكوناً أنهاراً طينية ، وتوجد هذه الظاهرة فى كثير من المناطق البركانية وتعين آخر مظهر للثوران البركانى مثل براكين صقلية ونيوزلند وباكو وجنوب بلوخستان

٦ — البراكين المـائية . وفيها لايخرج سوى المـاء كما فى الينابيع الحارة والنافورات

أسباب البراكين

سبق لى القول فى العدد ٥٣ من هذه المجلة الغراء الصادر بتاريخ ٩ يوليو الماضى ، أن القشرة الظاهرة للأرض عرضة لعامل الانكماش بفعل انخفاض حرارة الباطن وانكماش الجزء الداخلى فتلتوى القشرة الظاهرية لكى تتلبس على الباطن الذى نقص حجمه . وقد يكون الالتواء الحادث من الانكماش فى بعض الجهات أكثر منه فى جهات أخرى ، ولذلك فانه حيث ينظم الالتواء تنكسر الطبقات الأرضية ، وتشقق مكونة مناطق ضعف فى القشرة الأرضية Lines of weakness

ولما كانت مناطق البراكين فى توزيعها على العالم تتبع هذه المناطق الضعيفة فاننا لا نشك لحظة فى أن السبب الرئيسى لحدوث البراكين هو تكوين هذه الشقوق أو العيوب faults التى تستفيد من وجودها المقذوفات البركانية والمواد المنصهرة ، فتندفع خلالها ، وتخرج منها الى السطح الخارجى .

على أن هذا السبب يحتاج لبعض التفسير ، فهناك قوة البركان القاذفة ، وتكرار الثوران بين كل آونة وأخرى ، وهذان يمكن تفسيرهما بوجود الشقوق البركانية مجاورة للمساحة المائية العظيمة ، ولذلك فان الماء المتسرب الى الباطن يتحول الى بخـــار بتأثير الحرارة ، يجتمع مع الغازات الأخرى التى فى الباطن ، ويكوّن منها قوة دافعة عظيمة تقذف بالمواد المنصهرة وغيرها الى السطح .

هذا وهناك من يرى أن المادة المنصهرة التى تخرج فى نهاية الثوران مصدرها « جيوب » فى أسفل القشرة الظاهرة ، وتوجد هذه بكثرة فى الجهات المرتفعة حيث يكون الضغط قليلاً .

غلطات شائعة

لا زلت حتى الآن ، وأنا أكتب هذا المقال ، أذكر كيف كنا نحفظ تعريف البركان بأنه « جبل يخرج ناراً ودخانا » ولعلى لا أكون مبالغاً إذا قلت إن هناك اليوم من لا يعرف إلا هذا التعريف للبركان .

البركان ليس جبلاً . وقد جاء فى تعريفى الأول للبركان ، أنه فتحة أو شق فى ظاهر الأرض يوصل بينه وبين الباطن ، وليس الشكل المخروطى الذى هو حقيقة شبيه بالتل أو الجبل إلا المقذوفات والأتربة التى قذفها البركان ، فتساقطت وانحدرت حول الفتحة البركانية مكونة هذا الشكل المخروطى .

وليس البركان جبل نار . إذ أن ذلك الذى يراه الناس فيحسبونه ناراً ليس إلا خطأ أو خداعاً نظرياً لأن انعكاس لون باطن البركان المتوهج على الغازات المتصاعدة يوحى إلى الناظر أن المتصاعد نار . ويجب أن نعرف أن هناك بين النار والتوهج فرقاً عظيماً فقد تكون قطعة من الحديد تتوهج احمراراً من الحرارة ولكن لا يصلح أن نطلق عليها اسم نار .

وهناك من يقول بأن البركان يخرج دخاناً وليس هذا القول صحيحاً ، لأن ذلك الذى يطلق عليه اسم الدخان ما هو فى الحقيقة إلا بخار الماء المتصاعد من باطن الأرض بفعل حرارتها عند ثوران البركان . كذلك لا يشترط فى ثوران البركان أن يحدث الانفجار من أعلى المخروط أو بمعنى آخر أن تكون الفوهة فى أعلى المخروط ، لأنه يحدث كثيراً أن تكون الفتحة جانبية وأن يكون للبركان الواحد أكثر من فوهة واحدة

ويحسن بى الآن وقد انتهيت من الكلام على البراكين أن أذكر ظاهرة طبيعية تقترن بثورانها ، وهى الاهتزاز الذى يحدث فى المنطقة المحيطة بالبركان الثائر ، وهذه يطلق عليها اسم الزلزال البركانى ، وهذا النوع من الزلزال ولو أنه محلى إلا أنه عنيف ، وقد يحدث تلفاً وأضراراً عظيمة كما حدث فى زلزال جزيرة Iscia (فى خليج نابلى) سنة ١٣٨٨ الذى أهلك ألفى نسمة ؟

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

القصص

القـــابلة (١)

للأســتاذ محمود خيرت

تقيم تلك القابلة مدام دوبوا فى ركن عنـد ملتقى شارع سان لازاك وشارع روشفوكولد حيث كتبت اسمها على باب منزلها بخط كبير

وهذا المنزل أو تلك (العيادة) التى لا تقتصر فى باريس على مساعدة الحاملات عند وضعهن ... لا تجرؤ الفقيرات على الدنوّ منها ، لأن مدام دوبوا تشتطّ فى الأجر فلا تستقبل فيها إلا طبقة السيدات الغنيـة التى ترى فى الحمل عبثاً ثقيلاً

وفى ذات يوم نزلت من العربة أمام تلك الدار فتاة رشيقة ثم صعدت الى الطابق الثانى . وبعد أن استقبلتها الخادمة وأدخلتها عند سيدتها أخذت هذه تطيل النظر فيها كأنها تستطلع أمرها ، لأن الزائرة كانت مع حسنها وصباها يشق جبينها من وقت لآخر خط ينم عن تفكيرها وتكتمها حالتها

على أن القابلة لم يخفَ عليها من أول نظرة أن هذه الفتاة حامل ، ولكنها مع ذلك تجاهلت أمرها ، وسألتها عن سبب زيارتها وقد عادت إليها حالتها العصبية السالفة :

« لقد اقتضى مجيئى إليك كثيراً من الشجاعة ياسيدتى لأننى لم يعد فى وسعى الاحجام بعد ذلك الصبر الطويل الذى غلبنى . بل إننى لا أدرى كيف قدرت على كتمان أمرى الى الآن . لذلك قصدتك وأنا أرجو السلامة على يديك فما أنا بذات بعل ولا أنا مخطوبة ، حتى اننى لأخشى أن يفتضح أمرى فيلحقنى العار ويلحق بأهلى »

وعند ذلك عادت القابلة تسألها : لماذا لم توحى لأمك بذلك فلعلها كانت تهيئ لك أسباب السفر الى مكان قصى تضعين فيه حملك . ولكنها كانت يتيمة من أمها ، وما كانت لتجد شجاعة على مكاشفة أبيها بأمرها وإن كان يحبها ويُعزّها خشية أن تنغص حياته وتكدر صفوه

وقد علمت منها القابلة أن عشيقها مات قبل أن تشعر بهذا الحمل الذى مضى عليه أربعة شهور ، فلامتها على إهمالها شأن نفسها الى تلك اللحظة قائلة إنها لو كانت قصدتها قبل ذلك فربما كانت وُفقت الى الأخذ بيدها . أما بعد هذه المدة الطويلة ...

وعند ذلك سقطت الفتاة باكية عنـد قدميها تستصرخها وتتوسل اليها صائحة : أنقذينى يا سيدتى فانك قديرة على ذلك . على أننى ما قصدتك الا بعد أن هدتنى إليك إحدى صاحباتى

أما القابلة فتجاهلت تلك الصاحبة قائلة إنها ما أقدمت مرة على عمل ممقوت كهذا ، فأخذت الفتاة تنوح وتستعطفها وتنشد مروءتها إن لم يكن اكراماً لتلك الصاحبة فشفقةً بها ، ثم قالت اننى لن أبخل بما تطلبين ، وأقسم لك أيضاً أننى لا أخرج من هنا الا صمّاء فلن يعرف أحد شيئاً من أمرك وأمرى

ولقد هدّأت هذه الأقوال من روع القابلة سيما بعـد أن اطمأنت على أجرها ، ولذلك قالت لها إنى أعرف هناجرّاحاً شهيراً فى وسعه أن يخلصك من هذا الحمل بغير عناء ما دمت تدفعين له ما يطلب ، ولـكنه لا يقبل أقل من ثلاثة آلاف فرنك . فلما قبلت المسكينة أوصتها بالعودة اليها فى صباح اليوم التالى

***

وفى الموعد وقفت عربة الدكتور تيسو عند باب منزل خلوى كان يعدّه لعملياته الجراحية المحرمة . وكان قد علم من القابلة بأمر هذه الفتاة وأنها جاءت كما أوصتها ، وناولته الأجر الذى اتفقت معها عليه . وعند ذلك سألها ما إذا كانت قد عرفت من هى أو من هم أهلها ، فقالت له إنها لم تشأ أن تذكر لها شيئاً من ذلك ، ولـكنها سلمتها خطاباً أوصتها أن لا تفضه إلا إذا كتب لها أن تموت لا قدر الله

(١) معربة عن الافرنسية

وعند ذلك هز الطبيب كتفيه ثم قصد إلى معمله قائلاً ، إذهبي أنت نخدريها بينما أغسل أنا يدى وأعقم سلاحى

وبعد لحظة كان الطبيب بغرفة العملية ، والفتاة نائمة عارية إلا أن وجهها كان مختفياً تحت حجاب المخدر

وعند ذلك شرع فى عمله بغير شفقة على هذا الشباب المنطرح أمامه ، ولكنه فوجىء بمضاعفات أخطأ حسابها ، وقطع القطن تتساقط من يديه فوق الأرض وقد صبغها الدم بينما القابلة تراقب تأثير المخدِّر فى ضربات القلب ، وكان قد مضى على بدء العملية عشرون دقيقة . غير أنه صاح فجأة : ماهذا ؟ لقد ثقبت الجدار . فصرخت شريكته ، إذن هلكنا

ولقد اضطر الطبيب إلى اتباع آخر وسيلة كانت أمله الأخير فأخذ يقتطع من لحم الفتاة ، والغضب والاضطراب باديان على وجهه ولكن القابلة صاحت فجأة صيحة مزعجة : لقد وقف قلبها . ماذا نعمل الآن . وكيف ندفع عنا شر هذه الخاتمة المشئومة . ثم أخذت تستر جسم الفتاة بغير أن تنزع عن وجهها ذلك القناع

أما هو فبعد أن غسل يديه كما يغسل القاتل يديه من دم قتيله صاح : كيف حصل هذا ؟ وما عسى أن نفعل بعد ذلك ؟ لقد قضى الآن علىّ وعلى اسمى وشهرتى ، وابنتى التى تعلم أننى رجل شريف ماذا يكون الآن حكمها علىّ ؟ ثم تحقيق النيابة ثم محكمة الجنايات . . اسمعى يادوبو : قولى إذا سئلت أنها لم تكن حاملاً وأنها . . ولكن القابلة أفهمته أنه لن يصدّقها أحد ثم ذكرته بأهلها الذين قد لا يسكتون أيضاً . وعند ذلك تضاعف يأسه وتذكر ذلك الخطاب الذى نوهت له به فطلبه منها لعله يهتدى منه إلى مكان أهل الفتاة ، وربما إذا غمرهم بالمال اكتفوا ووقفوا عن الشكوى .

ولكن ما كادت تقع عيناه عليه وأصابعه ترتجف وعرقه يتصبب حتى صرخ صرخة دوت لها الغرفة ثم أسرع فنزع ذلك القناع، فإذا بتلك الفتاة ليزا ابنته !

ولا تسل بعد ذلك عما حلّ به فقد أخذ يلطم خديه ويدق صدره ويدفع رأسه دفعاً شديداً فى الحائط كمن جُنّ . وأخيراً جحظت عيناه فأخذ مبضعاً قريباً منه وغيبه فى صدره حيث سقط ميتاً بعد أن جر ابنته إلى جانبه عند سقوطه .

محمود خيرت

سحر المرأة

بقلم محمد عبد الحميد

وأنت يا أمين ألا تتزوج ؟

أنا ؟ لا . لن . . .

بهذا الرد القاطع أجابنى « أمين » يوم سألته وكنا فى رفقة من الزملاء ، نقطع الوقت بالحديث ، وأغلب مايدور حديث الشباب حول المرأة

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٠ ، وكان « أمين » معاوناً فى وزارة الأوقاف ، مات والده قبل أن يبدأ مرحلة الدراسة الثانوية ، وهو مايزال صبياً لم تثقله الحياة بهمّ أوتصبه بكارثة ، فشاء أو شاءت له الظروف أن يختصر طريق التعليم ، فلم يكد يقطع شهوراً فى مدرسة مشتهر الزراعية ، حتى لحقت أمه بأبيه

فقضى أمين زهرة حياته محروماً من عطف أبيه وحنان أمه ، لم تكد تتفتح نفسه ، ويلمع بريق الحياة فى عينيه ، حتى ألفى نفسه وحيداً ، لا تضمه الى صدرها أم ، ولا يتولاه بالارشاد أب . لم ينسكب فى نفسه هذا النور الذى تشعه عيون الأمهات حناناً ورحمة ، وخرج الى الحياة بقلب صلب لم تصهره قبلات الأم الحارة البريئة ، ونفس جافة لم ترققها شفقة الوالد ورعايته . كذلك إخوته الثلاثة قطعت الحياة بينهم وبينه ، فلم يلمس حنان الاخوة ، ذهب أولهم فى بعثة الى أوروبا لدراسة الطب ، والتحق الثانى والثالث قبل وفاة أبيهما بوظائف الحكومة ، وعاش كل منهما مع زوجته فى منزل وحده

وكذلك عاش أمين وحيداً أكسبه جفاف حياته خشونة لم تكن تروق فى أعين الذين يحتكون به ، فكان صريحاً جافاً ، لايفكر فى أحد من الناس ، ولا يفكر فى الاتصال به أحد من الناس

غير أنه كان يضم فى كيانه قلباً حياً نائماً لم يتح له أن يثور ، فرقت بيننا ظروف العمل ، فنقل الى مأمورية الأوقاف فى طنطا ، وهناك ولأول مرة بعد وفاة والديه اتصل برجل من أهله . فقد كان له فى هذه المدينة « خال » لم يتصل به منذ صباه . زار منزل خاله ، فرحب به أهل الدار : خاله وزوجته وابنه وابنته « زينب » ، وهى عذراء ، أتمت السادسة عشرة من عمرها

مضت الأيام وتوالت الشهور دون أن يعنى كثيراً بزيارة أقاربه حتى أحسّ يوماً بالمرض يسرى فى جسمه ، وإذا هى الحمى ، وإذا

هو مضطر أن يستريح كما أشار عليه الطبيب ، ولكن أين يجد الراحة وهو «أعزب» ليس فى منزله من يعني به أو يهتم بأمره ، وهو مضنى لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه . إذن لتكن دار خاله ملجأه اليوم فى مرضه ، لعله يجد فيها بعض الراحة مما يعانى

لقيه أهله فى عطف ، وأحاطوه بقلوبهم ، ووقفت الى جوار سريره « زينب » لا تكاد تخرج من بين شفتيه كلمة حتى تسعفه بما يبغى ، وتقوم له بما يحتاج ، وما تكاد الساعة تدق حتى تسرع الى الدواء تسكب له منه بالقدر الذى أشار به الطبيب ، وهى ما تفتأ بين الحين والحين ، تضع يدها على جبينه تجس بها حرارته . كانت تقضى النهار الى جواره ، وتقطع الليل أو أغلبه حول سريره ، ما يكاد يلمع ضوء الفجر حتى تهب اليه تسأله فى كلمات رقيقة عذبة ، ألم يشعر بتحسن ؟ ألا يزال يمقت ماء الشعير ؟ أتستطيع أن تحضر له مقداراً يغذى جسمه وتستريح به معدته ؟ وهى الى جانب هذا لا تنقطع كلما صحا من نومه المتقطع تعمل على راحته وتسعى جهـــدها لتغتصب الابتسامة من بين شفتيه اغتصاباً ، واشتدت به العلة يوماً فارتفعت درجة حرارته ، وأغمض عينيه ، ووقف حوله أهله يبتهلون الى الله من أجله ، حتى اذا كان الليل وهدأت الحياة ، واستسلم الجميع للنوم ، أفاق أمين قليلاً وارتفع جفن عينه المغمض فاذا هو يواجه « زينب » الى جواره تنظر اليه بعين قد التهبت من البكاء .

ماذا ؟ هل تبكين ؟ ثم انهمرت من عينه دمعة لعلها أول دمعة تفيض بها عينه منذ وفاة والدته .

توالت الأيام وزال عن « أمين » ما كان قد أقعده فعاد الى عمله يستعيد مع الأيام الطويلة بعض الذى فقده

لم يكن يعيش مع أقاربه فى مدينة واحدة ، بل كان يعمل فى « منطقة » من مناطق الأوقاف القريبـة من طنطا فلم يكد يقطع اليوم الأول فى مقر عمله حتى أحس فى أعماق نفسه شعوراً قوياً يدفعه الى العودة .

إنه يحن إلى طنطا ، بل هو يحن الى منزل أهـله . طغى على قلبه شعور قوى لم يكن يدركه قبل اليوم يدفعه الى العودة .

إلى أين ؟ الى منزل أقاربك . ولـكن لماذا ؟ لقد شفيت ولم تعد لى بالعودة حاجة ، وأنا لم أقض بعيـداً عنهم يوماً كاملاً ؟ لقد كانت هناك حاجة قوية تدفعه ، وشعور جبار يغريه .

نام ليلته الأولى بعد تفكير طويل لم يكد يتبينها واضحة جلية ، فاذا هو يقطع الليل فى أحـلام متقطعة رأى فيها أشباحاً بيضاء رقيقة تدور حوله ، فلما حاول أن يتعرفها لم تتمثل له غير « زينب » .

زينب العذراء الحلوة الفاتنة ، زينب الجميلة الساحرة ، هذه عيونها تلمع بفتنة الحياة ، وهذا قوامها البديع ، وهذه يدها الرقيقة تمتد اليه فى دلال ولين ، وهذا صوتها العـذب يتدافع الى أذنيه حلواً سـائغاً .

هب من نومه مع الصباح الباكر فألفى السماء ساكنة صافية وهذه الأشجار لا تزال تلمع بقطرات الندى ، والقرية ساكنة إلا من أصوات أفراد قلائل يصل اليه وقع أقدامهم وهم فى طريقهم الى المسجد يؤدون فريضة الصباح ، غير أنه يشعر بوحشة ويحس بالهم والحاجة . . .

لابد أن يكتب الى خاله يشكره على عنايته به فى مرضه ، فاذا هو يختم خطابه فى حرارة لم يـكن يحسها قبل اليوم ، وإذا هو يحاول أن يختص زينب بتحية يقنع نفسه أنها سـتدركها رغم أنها صادرة للجميع .

لقد أحب أمين . ! أمين الجامـد الصلب قد تفجر قلبه فاذا الحب يكاد يحرقه ، وإذا العاصفة التى ثارت فى أعماقه تكاد تسحقه ، فاذا هو يعود الى منزل أقاربه ، وإذا هذه الزيارة تتكرر فى الاسبوع الواحد مرات ، وإذا هو لا يصمد لهذه الثورة المجتاحة .

لقد نفذت العاطفـة الحارة الى قلبه فألهبته وصهر العطف نفسه فاذا هو يرى فى الحياة ألواناً جـديدة ، هو يهواها ويفنى نفسه فى سبيلها . لقد لمسته المرأة بالعصا السحرية فانبثق النور فى أعماقه ، فاذا هو مفتون .

كانت الأيام قد توالت ، وكنا على وشك أن نختتم عام ١٩٣٢ فاذا أنا أتسلم منه كتاباً لم يزد فيه على كلمات :

عزيزى محمـد :

لقد أدركت سر الحياة لأول مرة ، فى عينى المرأة ، سأتزوج .

أخوك . أمين

لقيته بالأمس فاذا هو كالعصفور يكاد يطير . ينطلق فى حديثه فاذا هو ينساب فى رقة وعذوبة ، وينقطع عنـــه ، فاذا ابتسامة مشرقة تنشر على صفحة وجهه نوراً لامعاً جذاباً

أتذكر يا أمين يوم سألتك عن الزواج ، فأجبت فى لهجة الواثق أنك لن تتزوج ؟ لا يصديق . لقد كانت الحياة إذ ذاك قاحلة جدباء . هيا هيا نشترى معاً « تربية الطفل » لزوجتى تقطع به الوقت ، وتخفف به عن نفسها عبء الحمل ، ونشترى لعبة مما أعده للمستقبل لابنتى المرتقبة « كامليا »

محمد عبد المجيد

٤ – سافو

لأوجيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

المنظر الثانى

(غرفة بدار حنا بها دولاب ومائدة فوقها شمعة موقدة وحنا وحده ينزع من الدولاب ملابسه بيدين مرتجفتين ويضعها فى حقيبة)

حنا — (كارهاً الحياة) نعم أفر من وجه هذه المدينة فلعلى لا أعود أشعر بآلامها وأقصد إلى قريتى فلعل نسيمها ينسينى مرارة هذا الحلم .

(يعثر فى الدولاب على علبة من صنع اليابان فيتأملها)

علبتها . والحفيظة على ذكرياتها . لمَ تعيدين لخاطرى أيتها العلبة صورة ذلك الماضى القذر (تظهر فنى)

فنى — (جازعة وهى تراه يستعد للرحيل) حنا . لا ترحل

حنا — قضى الأمر

فنى — لقد كذبوا عليك حسداً . ثم كيف أصغيت إليهم وكيف صدقتهم

حنا — سافو . (متعمداً لكى تفهم أنه يعلم ماتخفى من أمرها) يالها من خيانة . أنت التى أبحتك قلبى ، واتخذتك معبودى تقدمين على خيانتى . أهكذا فى وسع امرأة أن تعبث بنفس هادئة مطمئنة وأن تحطم قلباً لم ينغمس فى إثم . ليتك تشعرين بما أشعر به الآن من مرير الألم . ولكنى أرحل فلعلى فى وحدتى أنسى وأنا أستنزل غضب الله ولعنته عليك . لقد بلغ من جهلى أن أكرمتك وتخذتك امرأتى ، حتى انكشف لعينى ماضيك الذى سترته عنى . وبلغ من نفاقك أن أعميتنى فتمكن سلطانك من إيمانى ، ولكن الحمد لله فقد نضب الآن معين حبى ووقف من دونك شبح كراهيتى ومقتى . فعودى الى ما كنت سافو الخليلة العاهرة الفاجرة

فنى — (وقد صدعها الألم والفضيحة) هب كل ماسمعت صحيحاً أفنسيتَ أن المصادفة هى التى جمعتنى بك . ثم ألم تقم هذه المصادفة سداً بين سافو الغابرة وفنى الحاضرة . أقسم لك أن سافو ماتت من يوم أن عرفت فنى

حنا — كما أقسمت لغيرى

فنى — أنا ما أحببت سواك ياحنا

حنا — تكذبين

فنى — (مضعضعة) بل إنى لصادقة وإنى لأعبدك

حنا — إذن لم احتفظت بهذه العلبة ؟

فنى — (مفكرة) أوعلمت بها ؟

حنا — (مشيراً الى الدولاب) إنها لا تزال هنا . انظرى

فنى — ولكنها لا تحوى شيئاً . . .

حنا — أبداً ؟ (يتناول العلبة بين يديه ليفتحها)

فنى — (بصوت خائر خافت) ما هذا الجنون

حنا — إنها تحوى الشواهد الناطقة بفجورك .

فنى — مهما جرعتنى من القسوة فما زلت أحبك

حنا — (بخشونة) أين مفتاحها ؟

فنى — لا أدرى

حنا — (مهتاجا يعالج فتحها بالقوة) سأعرف كيف أحتال على فتحها

فنى — (تحاول منعه ويكون قد فتحها) ولكنك تعالج النار بالنار

حنا — ها قد أفلحت . انظرى . إنها هنا مكدسة منكمشة خشية أن يفوح نتن عارها

فنى — أحرقها إن شئت فهى لك

حنا — لى أنا ياسافو . . .

فنى — لم أعد سافو يا حنا (تتناول بيد مرتجفة بعض رسائل سقطت على الأرض) نعم أحرقها أو فمزقها لتصدق أننى أصبحت لك وحدك (بلطف) بالله لا تجر خلف شكوكك ودع ما أقاسى يتصاعد فى دخانها . إنها ما كانت غير سحب بعيدة فلا تحجب الآن بها سماء طهارتى

حنا — (ببطء وألم) كنت أود أن أقف على ما فيها

فنى — إذن أنت تريد أن يصل الهم الى قرار نفسى (تقترب وإحدى يديها الى ظهرها حيث تمسح بيدها اليمنى خده كما كانت مع كاوودال)

حنا — (منفجراً) إنك بهذه الحركة تعيدين الى ذهنى صورة ما اعتدته مع سيدك كاوودال

(تأخذ بحالة عصبية لفافة وتشعلها)

على هـذه الصورة أيضاً كنت تدخنين لفافاتك معهم . إنك لا زلت تكلمينني بلغة المصنع وأسلوب العاهرات حتى كأنى بين عشاقك أسمعهم وأراهم

فني — (تلقى اللفافة بغضب وتفركها بقدمها) ما أقساك

حنا — كل هـذه الرسائل على ما بها من صفرة القدم وتأثير الزمن . . .

فني — (تقطع حديثه) دعنى أنا أشعل النار فيها

حنا — أن أتبين ما بها (يقرأ إحداها) : « ليتك ياسافو تعلمين كم أحرقت من دمى لأجرى الحياة فى المرمر الذى نعم بتصوير جسمك الغض ... »

فني — (معترضة) بالله عليك (تخطفها وتحرقها)

حنا — (يتناول كتاباً آخر) إنه شعر هذه المرة

سافو لقد ذقت الهوى من مقلتيك فذقت أنسا
لكن بعدك شفني وجنى على فكيف أنسى

(متأثراً) ماذا فعلت معهم حتى تركتهم على هذه الحال

فني — (حزينة) ليتنى أدرى

حنا — (يقرأ رسالة أخرى ورقها وردى اللون) : أنا بانتظارك الليلة فى دار التمثيل » (تطرق فنى خجلا . أماهو فيحرقها ولكنه يحس كأن سهماً مسموماً أصابه حين يقع بصره على تخطيط يصورها عارية)

وهذا الرسم ؟ إذن كانوا يصورونك عارية (ثم يقرأ ما هو مكتوب تحته) : « حبيبتى سافو . . . »

فني — متحبية اليه) إننى ما استبقيته الا لشهرة مصوره

حنا — (يلقيه اليها) احتفظى به

فني — (ترده اليه) بل احرقه واحرق كل ما بقى معه (بحزن) كفى ياحنا وارحم ألمى (يشتد حزنها) وليتك تعلم كيف نشأت ، فلقد كنت وأنا طفلة على ما يروى زهرة القرية أمرح فى الطرقات وقد تيتمت من أمى وربما أيضاً من أبى ، وما كان يعود إلا آخر الليل يترنح من السكر ، وكان شديد القسوة معى حتى اذا ما بلغت سن الخامسة عشرة ، وأنا أجمل فتيات الناحية فررت الى هذا المصنع . أما أولئك الفنانون فانتهزوا فرصة احتياجى وبؤسى فعبثوا بطهارتى ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا الى طريق قلبى ولا تركوا فى نفسى من الأثر غير الحقد واللعنة ، فهذا القلب ما كان لهم يوماً ما خطمه إن شئت فانه لك

حنا — وما هذه الرزمة المخبأة

فني — (تصرخ متألمة) لا إلا هذه يا حنا

حنا — وما الفرق بينها وبين أخواتها

فني — حنا . دعنى أحرقها . أتوسل اليك

حنا — إنك تحيرينني

فني — قلت لك دعها (تحاول اختطافها فيتغلب عليها) إذن ليكن ما يكون

حنا — (متهكماً) طابع السجن ! (ينظر الى الامضاء) فرومان ! فرومان المزور ؟

فني — بل فرومان القدير . أما التزوير فما يعيبه ، وما دفعه اليه غير فقره .

حنا — (باحتقار) إنه مجرم

فني — (متلطفة به) بيبى

حنا — (يستشيط غضباً) هذه الكلمة كنت تداعبين بها أيضاً ذلك اللص

فني — ليكن ، ولكن مالك به وأنا لك

« يتبع » محمود خيرت

الشخصية

[بقية المنشور على صفحة ١٤٠٤]

خارجى بل أتت من تفكير الشخص فى نفسه وتحليلها وتبين موقفها فى العالم ، وموقف العالم منها ، وتساؤله لها مارسالتها فى العالم وكيف تؤديها — فاذا هو يشعر بعد طول التفكير كأن قبساً من نور إلهى ألهب نفسه ، وأضاء العالم أمامه ، فهو يسير على هدى ، ويؤدى رسالته كما بلغ ، الى كثير من أمثال هذا مما لا يستطاع حصره .

ويظهر أن النفوس إذا نضجت تلمست الوسائل المختلفة لبروزها ، وظهور عظمتها ، والصوفية يقولون : « صاحب الخصوصية لا بدأن يظهر يوماً ما » ولكن كم فى العالم من شخصيات كامنة لو هيئ لها عود الثقاب لاشتعلت ، ولو أتيح لها القبس لأنارت ، وكم من بذرة صالحة قوية لم تجد تربتها اللائقة بها ، فغلبتها على الحياة بذرة فاسدة ، وكم من زهرة بدأت تتفتح فأصابتها ريح هوجاء عصفت بها — وعمل المصلحين والشخصيات القوية فى كل أمة أن يستكشفوا هذه الكوامن فيقدموا لها الغذاء ويتعهدوها بالنماء ؟

أحمد أمين

الكتب

صلاح الدين الأيوبى

لمؤلفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم عبد الحميد حفنى الشواربى

لجنة التأليف والترجمة والنشر ، هى بلا ريب فى مقدمة الجمعيات العلمية الحديثة ، التى ساهمت — الى حد كبير — فى النهوض العلمى والانتاج الفكرى فى الشرق العربى ، الذى يقاسى فوق فقره المادىّ من أثر الاستعمار الأوروبى فقراً أشد فتكاً وأبعد خطراً ، هو غزو اللغات الأجنبية له ، فقامت هذه اللجنة فى جهد الجبابرة ، تنشر وتترجم وتؤلف بلسان عربى فى مناح مختلفة فى الفلسفة والعلوم والآداب والاجتماع .

والذى يحز فى قلوبنا وينال من إحساسنا القوى ، أن تنهض هذه الجمعية على أكتاف أفرادها ، دون أن تمكن لها من مال الدولة أو الأمة بالقدر الكافى ، أو ما يوازى على الأقل ما حصلت عليه الجمعيات العلمية الأجنبية مع ما فيها من مكمن الخطر التبشيرى وما تحمله من نزعات الشر والكراهية لمصر والمصريين .

هذه الجمعيات قد منحت من أملاك الدولة ، فى الصميم من قلب المدينة وخير بقاعها ، فضلاً عما تمدها به حكوماتها وشعوبها ، بينما ترى مركز لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فى ركن متواضع من أركان بيت ضج بالسكان ، أو المرضى من الناس فى شارع الساحة . هذا فضلاً عن حرمانها من امتيازات لو مُنحتها لدرت من أنواع الثقافات أفضلها وأعظمها قدراً

وأذكر أن المرحوم ثروت باشا قد أشار الى وجوب إصدار سلسلة معارف عامة تعين على ثقافة الشعب ، فكانت هذه اللجنة هى أول من لبى أمنية وزير مصر الكبير

وكان أستاذنا النابه « محمد فريد أبو حديد » أول من وقع اختيار اللجنة لرسالته كسلسلة معارف عامة فى صلاح الدين الأيوبى .

والمؤلف غنى عن التعريف لولا ما تأخذنا به أصول التحليل والنقد . فهو أستاذ تخرج فى المعلمين العليا ، وفى مدرسة الحقوق المصرية ، وتقلب فى مناصب عدة فى التعليم الثانوى ، على أن هذه العناوين ليست كل شىء فى الرجل ، فان كثيرين قطعوا مراحل التعليم منفعلين لا فاعلين ، ومروا بها مر امتحانات متأثرين لا مؤثرين ، ولكن هذا الرجل وقد عاشرته عن كثب — تجد فيه الابن المصرى البار الذى كلف نفسه حمل رسالة النهضة من وجهتين : أخلاقية وعلمية — ليؤديها الى الناس فى نفس كبيرة وجسم ضئيل

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت فى مرادها الأجسام

انظر إليه وهو يلقى عليك هذا السؤال فى مؤلفه صلاح الدين ما الحياة ؟ فانك لتستشف من جوابه على هذا السؤال ناحية أبية من نواحى النفس المصرية النادرة ، أو قليلة العدد على الأقل ، التى يغتبط بوجودها ، بل ويفتقر إليها المجتمع المصرى ، وهاك جوابه : « أليست تلك الأنفاس التى تتردد فى تلك الفترة المحتومة ما بين واجب البلاد وواجب الموت ؟ ألا إنها فترة مملة مسئمة إذا لم يكن بها ما يهز النفوس » .

ثم هاك كتابه وقد تناول بالبحث الشيق بطلا من أبطال العالم الاسلامى تقف فيه على خير عصر من عصور التاريخ عانى من غشاوة الجهل والتعصب التى اكتنفت أوروبا فى القرون الوسطى . وترى كذلك كيف تكون السياسة الحكيمة يمليها رجل الشرق فترتفع الحواجز وطلاسم الحياة التى بيننا وبين أية أمة بالغة ما بلغت من العظمة والسلطان ، اسمعه يقول فى تقدير صلاح الدين « والناس إذا تولى أمرهم عظيم تساموا إلى مستوى عظمته فأتوا بالعجب » وها كم رجل الساعة مصطفى كمال مصداق لما ذهب إليه المؤلف الجليل . والكتاب فى جملته وتفصيله حافز للهمم دافع للعزم الصادق فى نفوس شباب طفت به مدنيات

[البقية فى أسفل الصفحة التالية]

يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

للدكتور محمود النشوى

استقبلت صباح اليوم وهو ينبلج عن عامل البريد يزدلف نحوى ويحمل بين أعطافه هدية ثمينة ، بل منة خالدة من الأمير الأكبر (عمر باشا طوسون) تلك هى كتابه الذى طوق به جيد مصر وأسماه (يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢) ولم أكد أتصفحه حتى ذكرت الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية مشرع الترجمة ومبتكرها فى الأمة العربية وإبان فجر المدنية الاسلامية ، ثم انتقلت بى الذاكرة إلى أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور وجالت فى خيالى صورته وهو يهيب بالإمام مالك رضوان الله عليه أن يؤلف الموطأ فيأبى ، ثم يرضى متأثراً بألحاح المنصور ، ثم يرسم له خطة التأليف حتى يقول إمام دار الهجرة لقد علمنى المنصور التأليف

ثم تذكرت الرشيد ومجالسه الأدبية وشعره الرقيق . وانتقل بى الخيال إلى المأمون وحدبه على العلماء وعلى العلم . وتفرده بكثير من مسائله ثم ذكرت قابوس بن وشكمير وشعره العالى الرصين ، وعضد الدولة بن بويه ، وسيف الدولة الحمدانى ، وأبا فراس بن عمه . وتلك الحلقة من الأدباء والشعراء والمؤلفين التى كانت تحف بهؤلاء الملوك والأمراء فتستمد منهم ومن مشاركتهم فى الشعر والعلم روحا تبعثها للأمة قوة ونهوضاً . ذكرت ذلك كله ، وعهداً ساهم فيه الأمراء والملوك فى العلم . فكان عصر العلم وكان عصر النهوض . وعلمت أن مؤلفات الأمير هى تباشير الصباح ، وبواكير النهضة العلمية فى مصر وفى غير مصر .

.. وإنك لتواجهك الوطنية المخلصة فى كل حرف من حروف كتاب الأمير الجليل حتى فى اسم الكتاب ، وفى مقدمته .

فاسم الكتاب يذكر باليوم المشؤوم . يوم الاحتلال . ومقدمته لا أصفها . بل أذكر فقرات من أولها . وأدعها توحى للقارئ بالغيرة على الوطن . وبالتفانى فى حب مصر . فاستمع للأمير الجليل حين يقول [(١)]

(يقبل علينا شهر يولية فى كل سنة فيذكرنا باليوم الأسود يوم ١١ يولية ذلك اليوم الذى داست فيه انكلترا المعاهدات الدولية وتعلقت بأوهى الأسباب . وضربت مدينة الاسكندرية فاقترفت بذلك سبة الاعتداء على أمة لم يكن بينها وبينها إلا السلام واجترحت إثم التهجم على بلاد لم تناوئها الحرب . ولم تبادئها بالعدوان والخصام) . ثم نراه يرسل زفرة الأسى محيياً أبطال مصر وضحايا يوم ١١ يولية فيقول (لحيا [(٢)] الله أولئك الأبطال الذين راحوا ضحية الدفاع عن الأوطان ، وتغمدهم برحمته ورضوانه) .

وكذلك ترى حدب الأمير على مصر يحدو به أن يذكر شهادة الأعداء ببطولة مصر فيحدثنا عن الماجور تلك Tulloche [(٣)] أنه دهش من بطولة جنود مصر حتى وثب الى حافة السفينة ورفع يده قائلا : لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى .

ثم يروى عن الأميرال سيمون قائد الأسطول إذ يقول فى تقرير يرفعه الى سكرتير الأميرالية [(٤)] (ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة) . ثم يختم أميرنا الجليل شهادة الأعداء لأبطال مصر بالأسف على الشهداء ، وعلى الوطن فيقول [(٥)] (رحمهم الله وعزانا وعزى هذا الوطن الأسيف) ذلك قل من كثر . وغيض من فيض من الوطنية فى كتاب الأمير .

وإن فى الكتاب من وراء ذلك لضبطاً ونقلاً عن مصادر لا تلين قناتها لغير الأمير حين يعتمد دار المحفوظات المصرية ، وحين ينقل عن تقرير القائد الأمريكى (جون دريتش) الذى قدمه لحكومته ، ثم نرى الأمير ينقل عن الأثبات ، فيروى عن ابن عبد الحكم مما ذكره فى كتابه (فتوح مصر) ، وعن خليل شاهين الظاهرى مما سطره فى كتابه (كشف الممالك) ، وعن صاحب الخطط التوفيقية ، وغير هاتيك المراجع التى ذكرها الأمير وذكر صفحاتها ، فأرانا كيف يكون الضبط ، وكيف يكون البحث العلمى الدقيق . فلتهنأ الأمة بأميرها وليهنأ العلم بمؤلفات الأمير .

محمود النشوى
دكتور فى الآداب

(١) ص ٣ (٢) ص ٤٦ (٣) ص ٩٩ (٤) ص ١٠١٣ (٥) ص ١٣١

الاستعمار حتى ماع ، وبهره سراب خلب حتى هوى واستسلم إلا من عصم ربك ، فبعث فينا من يعانى النظر فى أمراضنا والبحث فى وسائل علاجها

ولولا مغالاة المؤلف فى أسلوبه العلمى وتوخيه البحث على نمط مدرسى وهو يكتب للشعب ، لكان مؤلفه قد بلغ الغاية وأوفى حتى انتهى إلى درجة الكمال . ولكن نشكره على جهده وما بذل فى وسط كوسطنا المصرى يعانى ذكرى مؤلمة لمجدنا السالف ، ومحنة راهنة بسبب فقرنا العلمى .

قليوب البلد عبد الحميد حفنى الشوارلى